مكتبة

عبد الرحمن منيف

العراق

هوامش من التاريخ والمقاومة

مكتبة 853

telegram @t_pdf

مكتبة | 852
سُر مَن قرأ

عبد الرحمن منيف

العـراق:

هوامش من التاريخ والمقاومة

مكتبة
t.me/t_pdf

الطبعة الأولى، 2003
جميع الحقوق محفوظة

الناشرن

المركز الثقافي العربي
للنشـــر والتـــوزيـــع

الدار البيضاء: ص.ب: 4006 (سيدنا)
هاتف: 2303339 ـ فاكس: 2305726
البريد الإلكتروني:
markaz@wanadoo.net.ma
بيروت: شارع جاندارك ـ بناية المقدسي
ص.ب: 5158/ 113
هاتف: 352826 ـ فاكس: 343701
بريد إلكتروني: hassan2@inco.com.lb

الدار العربية للعلوم
نشر وطباعة وتوزيع

لبنان: عين التينة، شارع ساقية الجنزير
بناية الريم ـ ص.ب: 5574/ 13 بيروت
هاتف: 860138 ـ 785107 ـ 785108
فاكس: 786230 (1-961)
البريد الإلكتروني:
asp@asp.com.lb
الموقع على شبكة الانترنت:
http://www.asp.com.lb

عبد الرحمن مُنيف

العراق

هَوامِش من التاريخ وَالمقاومَة

مكتبة | 852
سُر مَن قرأ

المركز الثقافي العربي
للنشر والتوزيع

الدار العربية للعلوم
نشر وطباعة وتوزيع

مدخل

لماذا هذا الكتاب الآن؟

بغداد تحترق

مكتبة
t.me/t_pdf

I

أثناء تحضيري لرواية «أرض السواد»(*) تكونت لدي، من خلال قراءاتي الكثيرة في كتب التاريخ والمذكرات والسياسة، هوامش واسعة حول فترة داود باشا وما بعدها. ولما قررت أن تقتصر الرواية على فترة داود، لم يكن لدي تصور واضح حول كيفية الاستفادة من هذه الهوامش، مع تقديري لأهميتها وضرورة أن تكون في أذهان الناس، لأن وجود ذاكرة تاريخية من شأنه أن يعلّم ويحرّض، ويجعل التاريخ ليس سجلاً بارداً للموتى وإنما حياة مَوّارة تعج بالأمثولات الحية والمعارف والمقارنات.

طبيعي أنه لا يمكن من خلال التاريخ وهوامشه أن نكرر ما حصل، لأن لكل حادثة وواقعة الظروف والعناصر التي كونتها وأعطتها هذا المسار، وبالتالي فإذا تشابهت حادثة سابقة مع حادثة راهنة فلا يعني ذلك أن نصل إلى النتائج نفسها، لأن ظروف كل حادثة تختلف عن ظروف الأخرى، ولأن العناصر التي كونت الأولى

(*) رواية في ثلاثة أجزاء، صدرت في بيروت عن المركز الثقافي العربي والمؤسسة العربية للدراسات والنشر.

ليست هي بالضرورة التي ستكوّن الثانية، ولذلك لا بد أن تختلف كل حادثة عن الأخرى. لكن اختلاف الوقائع والأحداث بين الماضي والراهن، لا يلغي اشتراكها في الأمثولات والاستنتاجات، حيث يمكن القياس على ما سبق، ويمكن الاستفادة من التجربة كي لا تتكرر الأخطاء ولتجنّب دفع ثمن سبق أن تم دفعه.

هذا هو معنى التاريخ بمفهومه الحي والمؤثر، والذي يقدم كل يوم دروساً سخية، شريطة أن تُستوعب هذه الدروس، وتصبح جزءاً من ذاكرة الإنسان. أما أن تتراكم الوقائع دون القدرة على استخلاص النتائج والدروس، فإنها مثل حال المكتبة الكبيرة التي لا يُعرف ما فيها من كنوز وكيفية الاستفادة منها، وبالتالي فإن وجودها أو عدم وجودها لا يغير في الأمور شيئاً.

ومع ذلك فإن وجود التاريخ معنا أو إلى جانبنا يجب ألاّ يكون أداة لاستعبادنا أو أن يلقي بظلاله الثقيلة علينا، لأنه إذا حصل ذلك فإنه يقيد حركتنا ورؤيتنا، ويجعلنا عبيداً بمعنى ما، إذ مهما بلغت عبقرية الأجداد، ومهما حفلت حياتهم بالبطولات، فإنها بالإضافة إلى عدم إمكانية تكرارها، فإن أحداث اليوم وظروف الأجيال الجديدة تختلف عن تلك التي مرت وشكّلت ذات يوم وقائع تاريخية، وبالتالي لا بد أن نبتدع وسائل مبتكرة لمواجهة التحديات والتعامل مع الوقائع الجديدة التي تواجهنا، مستفيدين من الذاكرة ومجتهدين في القياس على الأحداث المشابهة، تماماً مثل الصانع الماهر الذي يستفيد من تجاربه السابقة ومن أخطاء الآخرين، ويحاول في كل مرة أن يقدم إضافة جديدة في هذا المشوار الذي ليس له نهاية.

أن يتوفر لي هذا المقدار من الهوامش، ولئلا تنزلق مرة أخرى

إلى الظلمة وتغيب، جعلني أفكر بطريقة ما للاستفادة منها وتحريض الآخرين على أن تكون جزءاً من اهتماماتهم، لأنه بالإضافة إلى متعتها فهي ذات أهمية كبيرة إذا استُحضرَت من جديد بقراءة نقدية ووُضعتْ في سياق يناسبها ويناسب المرحلة التاريخية التي نعيشها.

وباعتبار أن من سمات العقود الأخيرة، على مستوى العالم، إعادة خلط الأوراق، تمهيداً لكتابة تاريخ من نمط جديد، وهو تاريخ المنتصر، وبالتالي تغييب وقائع واستحضار غيرها أو بديل عنها، كان لا بد من الوقوف في وجه الدخيل المزوّر في هذه الموجة الجديدة، ورد الاعتبار للقيم والمفاهيم التي شكّلت المقياس لمراحل سابقة. فالوطنية مثلا ليست قيمة قديمة بالية يجب الاستغناء عنها، والدفاع عن كرامة الشعب وحريته ليس موقفاً شوفينيا يجب تجاوزه، والحرص على الأوطان والتضحية من أجلها جزء من السيادة والدفاع عن النفس لكي يتم تسليم الأمانة للأجيال القادمة. ويمكن أن يقال الشيء ذاته عن الكثير من القيم التي تشكل الملامح الحقيقية لأي شعب.

التاريخ في هذا الجانب إذن يمكن أن يقدم لنا الكثير، وهذا التاريخ بمقدار ما يتّصف بالصدق والدقة، يكون سنداً قوياً أو عاملاً سلبياً معيقاً، الأمر الذي يستدعي قراءة متأنية موضوعية للوقائع، ومعرفة نقاط قوّتها وضعفها، وإلا انقلب السحر على الساحر، كما يقال، إذ يصبح التاريخ ذاته عبئاً بدل أن يكون رافعة وطاقة إضافية. معنى ذلك أن نقف أمام الوقائع، خاصة الأخطاء التي ميّزت بعض المواقف، وأن نتأملها بصراحة من أجل استخلاص العبرة ومعرفة الأسباب الكامنة وراء هذه الأخطاء، في محاولة لتجنّب الوقوع في ما يماثلها.

ومما لا شك فيه أن التاريخ كلما اقتربت وقائعه أصبح أكثر حساسية، لأن عدد المستفيدين أو المتضررين من رواية الوقائع بهذا الشكل أو بشكل آخر ينعكس على هؤلاء، بينما الوقائع التاريخية القديمة، والطريقة التي تعتمد في قراءتها، لا تتجاوز، أغلب الأحيان، كونها اجتهاداً، أو ترجيحاً لاحتمال على غيره، وبالتالي فإن المستفيدين أو المتضررين قلة بصورة عامة.

يضاف إلى ذلك أن العصور المتأخرة، بما هيأت من إمكانيات وظروف ووسائل، لم تعد تمكّن الكذبة أن تستمر فترة طويلة. يمكن أن تُخفى الحقيقة لبعض الوقت، يمكن أن تُموّه، لكن الحقيقة لا بد أن تظهر وأن تتغلب. قد يكون ظهورها متأخراً نسبياً، أو غير ذي فائدة مباشرة، لكن ليس كما كان في عصور سابقة، حيث أخذت وقائع كثيرة طريقها إلى الظلمة فالغياب لأنها لم تجد من يظهرها أو يدافع عنها.

II

ولأن الهوامش التي تكونت لدي كثيرة، فقد استبعدت قسماً كبيراً منها، واقتصرت على عدد محدود، خاصة تلك التي لها علاقة بالأحداث التي نعيشها في الوقت الراهن، أي تلك التي ترتبط بالقرن العشرين وذات الصلة بالاستعمار، «القديم» منه و«الحديث».

إن دخول البريطانيين إلى العراق في منتصف العقد الثاني من القرن العشرين خلق وضعاً جديداً، خاصة وأن هذا الوضع ارتبط بالنفط، هذه الثروة التي كانت نعمة ونقمة على البلدان التي وجدت فيها، ولا تزال كذلك إلى الآن. فالبلدان المستعمرة، عانت الكثير

نتيجة العلاقة غير المتكافئة والاستغلال البشع، لكن النفط على وجه التحديد كان عاملاً إضافياً في تشبث الدول المستعمِرة وإحكام قبضتها على مستعمراتها، وإقامة أنظمة تؤمّن لها أعلى درجات الاستقرار والتحكم. ولقد زاد هذا في تخلّف البلدان النفطية، لأن الخوف كان يساور دول الاستعمار وشركاتها أن تفلت منها هذه البلدان، وأن تفقد الدجاجة التي تبيض ذهباً.

في المقابل، ومع تفاوت يناسب مستوى التطور تبعاً لحالة كل بلد، فإن العراق من البلدان النفطية القليلة التي خاضت معارك كبيرة وهامة مع المستعمر، منذ بداية وصوله ومحاولته السيطرة. فثورة العشرين مثلاً التي انفجرت مع بداية الحكم البريطاني للعراق أكدت، ومنذ البداية، أن هذا البلد لا يمكن أن يُحكم حكماً استعمارياً مباشراً، الأمر الذي اضطر الإدارة الاستعمارية إلى البحث عن واجهة وطنية تحكم من ورائها أو من خلالها. ولأن هذه الصيغة المموهة لا بد أن تنكشف بمرور الوقت، فقد عانت الحكومات المتتالية التي جيء بها من التمردات والثورات التي لم تهدأ، الأمر الذي اقتضى تعديل صيغة التعاهد أو الارتباط بين الطرفين المرة بعد الأخرى، وأدى أيضاً إلى أن تصبح الحكومات «الوطنية» ضعيفة وتطلب باستمرار حماية الدولة المستعمِرة.

لقد كان وضع العراق منذ اللحظة التي خضع فيها للاستعمار المباشر ثم للانتداب، حتى حكمت علاقاته مع بريطانيا المعاهدات والاتفاقات، كان وضعه طوال تلك الفترة قلقاً مضطرباً، إلى حين انتهاء العلاقة البريطانية - العراقية بقيام ثورة تموز 1958 وسقوط حلف بغداد.

كما أن الاستعمار الذي اعتبر أن الحكم «الوطني» يحميه من المجابهة المباشرة مع الجماهير ما لبث أن اكتشف أن ذلك الحكم مليء بالعيوب والثغرات. حتى الحكام الذين جاء بهم الاستعمار لم يلبث قسم منهم أن انقلبوا عليه، أو لم يستطيعوا أن يسايروه إلى النهاية، وهذا يفسر قصر حياة الحكومات وتعديل المعاهدات، ويفسر أيضاً التمردات والثورات التي حصلت في أكثر من فترة.

إن نهاية الملك فيصل الأول الملتبسة، والتي تحيط بها الشكوك، ثم مقتل الملك غازي، وانقلاب بكر صدقي وثورة رشيد عالي الكيلاني، وغير ذلك من الوقائع الكثيرة، تدلل على مدى الاضطراب في وضع العراق طوال فترة وجود الإنكليز، وبالمقابل مدى المقاومة التي واجهت هذا الاحتلال وطبيعة النظرة إليه أو التعامل معه، بحيث كان الاحتلال دائم الخوف، ومعه أيضاً الفئة الحاكمة التي تُعتبر امتداداً له، وأداته في الحكم والسيطرة.

حضور هذه الأحداث في الذاكرة درس بالغ الأهمية، إذ يقول بشكل مباشر وغير مباشر إن الطرفين، المستعمر والمستعمر، لم يكونا قادرين على التعايش أو الاستمرار، وبالتالي كان كل منهما يتربص بالآخر وينتظر الفرصة المناسبة للانقضاض عليه، وهذا يفسر الصيغة الدموية التي اتصفت بها أغلب الأحداث التي مرت على العراق طوال عقود متوالية، وإلى أن سقط الاحتلال بصيغته المباشرة وصيغته غير المباشرة، ومعه الفئة الحاكمة التي نصَّبها، وكانت أداته في المواجهة والتصدي للجماهير.

فثورة رشيد عالي الكيلاني، ولسنا هنا بصدد تقييمها بشكل كامل، تدل على أنه حتى بعض الحكام لم يكونوا مقتنعين، وبالتالي

راغبين، في بقاء الصيغة البريطانية - العراقية التي كانت قائمة آنذاك. أما كيف هرب الوصي على العرش، وبتلك الطريقة المذلة، وكيف عاد بدبابات الإنكليز، فإنه مجرد مثل حول طبيعة الحكام ومدى خضوعهم لإرادة المستعمِر.

وقائع مثل هذه، وقد وردت حولها تفاصيل كثيرة في مذكرات الساسة الذين كتبوا عنها، تؤكد أن العلاقة لم تكن سوية أو مرضية، ناهيك عن مدى التخلف والفقر المسيطرين على العراق من أقصاه إلى أقصاه طوال تلك الفترة، علماً بأن هذا البلد يمتلك من الطاقات والإمكانيات ما يؤهله لأن ينتقل من هذا الوضع إلى مستوى بلد متقدم اجتماعياً واقتصادياً، لكن الإنكليز، ومعهم الفئة الحاكمة، لم يكونا يريدان لهذا البلد أن يتقدم أو أن يتغير إلا ببطء وحسب خطوات محسوبة.

ورغم أن الإنكليز طوال فترة وجودهم في العراق، لجأوا إلى كل الأساليب التي من شأنها إدامة سيطرتهم لأطول فترة ممكنة، بما في ذلك افتعال المعارك بين الفئات العرقية والمذهبية، إلا أن الوعي الشعبي، والوطنية الحقة، كانا ينأيان بالجماهير عن الانحدار إلى هذا المستنقع، وهذا يفسر التضامن المتين الذي ظهر في ثورة العشرين، وفيما بعدها من أحداث، إذ أبعَدَها عن الانزلاق إلى الفخ الطائفي، ولعل في موقف قوى وسط العراق والبادية الغربية ثم الشمال من هذه الثورة ما يؤكد ذلك. لقد كان العراق بعيداً عن الوقوع في المنزلق الطائفي، وفي هذا أحد أهم أسرار قوّته، عكس مجتمعات أخرى كانت سهلة الانجرار إلى المناخ الطائفي، وبالتالي استهلكها هذا المناخ وجعلها تنسى أو تؤجل معركتها مع العدو الرئيسي.

III

بعد ثورة تموز 1958، ولأن التحالف الذي عجّل بقيامها، ثم ساندها بعد أن قامت، كان هشاً ويفتقر إلى مقومات البقاء والاستمرار، فقد اضطربت الثورة منذ مراحلها الأولى، ثم انزلقت إلى الصراعات الجانبية فالضياع ثم السقوط. وهكذا ضاعت هذه الفرصة، ومعها المرحلة التاريخية، في تقديم صورة وصيغة عما يجب أن يكون عليه العراق، وبدأت سلسلة من التجارب المليئة بالثغرات والأخطاء، ولعل أبرزها عدم قدرة القوى السياسية والاجتماعية على التحاور والاتفاق على برنامج الحد الأدنى، وبالتالي إقامة تحالف وطني يمكّن من إنضاج صيغة تساعد على بناء عراق جديد. كانت كل قوة من القوى السياسية تفترض أنها وحدها التي تملك الحقيقة والمصداقية، وأنها وحدها المؤهلة لقيادة العراق، ولذلك فهي غير مستعدة للاعتراف بالقوى السياسية الأخرى، لمحاورتها، لإشراكها في السلطة، أو على الأقل أن تتيح لها فرصة الوجود والتعبير، وهذا أدى إلى انغلاق القوى السياسية، وإلى قيام حروب فيما بينها. وفي حال انتصار إحدى هذه القوى تحاول أن تحذف القوى الأخرى وتقطع الطريق على احتمال وجودها مرة ثانية. ولعل هذا ما يفسر القسوة المبالغ فيها التي لجأت إليها كل قوة في التعامل مع غيرها.

لقد كان متاحاً للعراق أن يقيم صيغة للتعامل فيما بين القوى السياسية تدوم طويلاً، لو امتلكت هذه القوى وعياً كافياً، وقرأت بدقة وضعها والظروف المحيطة بها، لكن العزلة التي عاشتها تلك القوى قبل الثورة، وخوفها المبالغ فيه، جعلها تغرق في الأوهام،

وجعلها تعجز عن إدارة حوار إيجابي فيما بينها من أجل الوصول إلى القواسم المشتركة، وإقامة تحالف طويل الأمد ثابت الأركان، الأمر الذي فجّر الصراعات فيما بينها بسرعة، وحول أمور ثانوية، مما جعلها تعادي بعضها بعضاً قبل أن تنهي صراعها مع خصومها الحقيقيين، وأدى أيضاً إلى استهلاك قواها في أمور ثانوية.

إن إدارة حوار بين القوى والأفكار قضية بالغة الأهمية، وتدلل على مدى النضج الذي يميز شعباً عن غيره، وبالتالي مدى إمكانيته في الوصول إلى الديمقراطية. فإذا انتفى هذا الحوار، أو اعتُبر شكلياً، ومن أجل استكمال المظاهر فقط، فلا بد أن يوصل الحالة السياسية إلى مأزق، وهذا بالضبط ما حصل خلال العقود الأخيرة، وصولاً إلى انهيار الصيغة التي تكونت وتراكمت منذ ثورة تموز.

إن التمسّك بصيغة الحزب الواحد، واعتبار القوى السياسية الأخرى مجرد ديكور، من شأنه أن يعزل النظام، أي نظام، ويجعله عرضة للغرق في الأخطاء والنرجسية، دون أن يكون قادراً على تقويم الأخطاء أو مواجهة الانحرافات، وبالتالي تجديد نفسه المرة تلو الأخرى، وإعادة ارتباطه بالجماهير. إن حالة مثل هذه لا بد أن تؤدي إلى افتقاد الموازين الصحيحة في قراءة الواقع ومعرفة حقيقة مطالب الناس ورغباتهم، مما يسهّل على القوى الخارجية أو المتضررة إسقاط مثل هذا النظام.

IV

بعد أن سقط الاتحاد السوفياتي وتفتت المعسكر الاشتراكي، وُلد عالم من نوع جديد، الأمر الذي انعكس على جميع دول

العالم، وأثّر تأثيراً عميقاً في العلاقات الدولية وفي موازين القوى، ولذلك فإن ما كان ممكناً قبل سقوط الاتحاد السوفياتي لم يعد كذلك بعد سقوطه. وهذا ما دفع أميركا، باعتبارها العامل الأساسي في إسقاط المعسكر الاشتراكي، إلى الاستفادة من الوضع الجديد لإعادة ترتيب العالم وفق مصالحها واستراتيجياتها. ولأن الشرق الأوسط منطقة شديدة الأهمية بذاتها ولموقعها فقد أولتها أميركا اهتمامها من أجل إحكام السيطرة عليها، ومن أجل أن تكون نقطة انطلاق لأنحاء أخرى من العالم.

ولأن جزءاً من أهمية الشرق الاوسط: النفط، كما كان الأمر مطلع القرن العشرين، حين احتدم الصراع بين الدول الاستعمارية على هذا النفط، فإن الهجوم الجديد على النفط في المنطقة ليس بهدف تلبية الحاجات، وإنما بهدف إحكام السيطرة على نفط العالم بمجموعه، وبالتالي التحكم بمستقبل الدول الأخرى ومصائرها، خاصة المنافِسة أو التي يمكن أن تكون كذلك في المستقبل.

فأوروبا والصين واليابان، وهي بلدان تستورد نفطها من الخارج، ستكون مضطرة إلى الامتثال، أو على الأقل إلى الاستجابة للكثير من المطالب الأميركية في حال تحكّم هذه الدولة بإمدادات النفط وأسعاره، أي أن أميركا هي التي ستتحكم بمصائر الدول الأخرى، وترغمها على تقديم التنازلات، وفي حال امتناع هذه الدول عن الاستجابة أو مقاومتها للسياسة الأميركية، فإن أميركا، بالإضافة إلى الذراع العسكري الذي تملكه، والتقدم التكنولوجي الذي وصلت إليه، قادرة على فرض شروطها.

مثل هذه الصيغة تقتضي ترتيبات، على أكثر من مستوى،

سياسية واجتماعية لدول المنطقة، لكي تكون جزءاً من الأداة الأميركية في إعادة ترتيب العالم. وهذا ما يجعل أميركا تركز هجومها على بلدان معينة، وترفع شعارات تداعب خيال الشعوب، وتحشد قوى أو تخلقها من أجل تحقيق هذه الغاية. ولعل ما حصل في أفغانستان ثم في العراق يقدم لنا الدليل على طريقة تفكير وعمل أميركا، وما تنوي أن تفعله في المنطقة مستقبلاً.

V

لكي نتجنب الوقوع في الخطأ أو الوهم، قدر الإمكان، لا بد أن نوقف أو نقلل المزج بين الأخلاق والسياسة، خاصة في السياسة الدولية. فالشعارات التي ترفعها الدول، والمواقف التي تعلنها، وغالباً ما تكون مرتكزة على المثل النبيلة، وعلى الحاجات الحقيقية للآخرين، لا يكون رفعها أو إعلانها بقصد التطبيق وإنما بقصد التسويغ لاعتبارها سبباً أو ذريعة لإجراء ما لاحق.

إن المصالح هي التي تحكم سلوك الدول وتحدد مواقفها. أما الأفكار والقيم فهي غالباً غير قابلة للتصدير، وإذا صُدِّرت فوفقاً لشروط واعتبارات معينة. كما أن المواقف التي تُتَّخَذ تجاه دولة، في فترة زمنية محددة، لا يعني أنه أصبح قاعدة أو قانوناً مطرداً يطبق في جميع الحالات المماثلة. إن الانتقائية والمصالح وتحديد الهدف والأسباب واختيار الشعارات والأسباب هي التي تحدد المواقف والسلوك، وما عداها مجرد مبررات أو ذرائع.

وعلينا هنا أن نتوقف إزاء مثال حي ملموس. فأميركا التي شجعت العراق على دخول الكويت، أو اعتبرت الأمر شأناً داخلياً

لا يعنيها، وقد عبّرت السفيرة الأميركية في العراق بوضوح عن ذلك، ما لبثت أن اعتبرت هذا الدخول سبباً لإعلان الحرب وحشد القوى من جميع أنحاء العالم لتحرير الكويت، وكانت بالتالي حرب الخليج الأولى.

غاردنر أول حاكم للعراق وباربرا بوداين رئيسة بلدية بغداد سرعان ما استبدلا ودفعا الثمن

أما العدوان الأخير، والذي سمي بحرب الخليج الثانية، فقد بدأ الإعداد له منذ أن انتهت الحرب الأولى، إذ بدأ الحصار والمقاطعة ثم امتد إلى التفتيش لتجريد العراق من أسلحة التدمير الشامل، وتشكلت من أجل ذلك لجان عديدة مارست البحث عن تلك الأسلحة من أجل تدميرها، وقد استمر ذلك سنوات عديدة

متواصلة دون التوصل إلى «اكتشاف» هذه الأسلحة. لم تكتف أميركا بذريعة وجود أسلحة التدمير الشامل وضرورة نزعها، وإنما أضافت أسباباً أخرى لاستمرار الحصار والتفتيش[1]، ولذلك هبّت لتخليص الشعب العراقي من النظام الديكتاتوري الذي يرزح تحت وطأته، وضرورة إقامة نظام ديمقراطي يكون قدوة لما يجب أن تكون عليه أنظمة المنطقة، ومن أجل ذلك خلقت معارضة وموّلتها، وجعلتها رأس حربة في التحضير لتغيير النظام.

طوال سنوات وأميركا تعمل وتحشد وتعبئ داخلياً وعالمياً ضد العراق من أجل نزع أسلحة التدمير الشامل، ولإقامة الديمقراطية. ولتحقيق ذلك لم تترك وسيلة إلا واستخدمتها لخلق المناخ المناسب لشن الحرب. استخدمت الأمم المتحدة ومجلس الأمن بأكثر من طريقة وعلى أكثر من مستوى لتغطية أعمال الحصار والمراقبة، وفرضت حظراً على الشمال والجنوب، ولجأت إلى استخدام القوة، خاصة الغارات الجوية، في عمليات التأديب والتطويع، وحشدت كل قواها الإعلامية في الداخل والخارج من أجل تهيئة الجو، كما وظفت كل أجهزة الاستخبارات لديها ولدى أصدقائها لصنع وقائع حول ما يمتلكه العراق من أسلحة ذرية وكيماوية وجرثومية، وأن هذه الأسلحة تهدد أميركا في عقر دارها، وليس فقط الجيران القريبين.

كان الكذب واختراع الوقائع الخبز اليومي الذي توزعه أميركا على العالم. فقد استطاعت، بما لها من نفوذ ودالة على الدول

---

(1) متذرعة أن هذا البلد يرتبط بعلاقات وثيقة مع قوى الإرهاب الدولي، خاصة تنظيم القاعدة، وهذا السبب وحده كان كافياً لشن الحرب عليه، فماذا إذا اقترن ذلك أيضاً بأسلحة الدمار، وبمعاداة الديمقراطية، وبتهديد الجيران؟

الأخرى، أن تنتزع قرارات جديدة من مجلس الأمن، لإعادة فرق التفتيش، ولتحديد مهل زمنية كي يدمر العراق أسلحته المحظورة، ناهيك عن تفويض هذه الفرق الدخول لأي مكان وتفتيش أي موقع دون إنذار سابق، دون رقابة، وأن تستجوب أي عالم أو أي شخص من أجل التأكد من وجود معلومات. وهكذا استبيح العراق بكل معنى الكلمة.

يجري ذلك في ظل التحشيد العسكري الذي لم يسبق له مثيل من حيث العدد والمعدات، وبزيادة الأموال والعطايا من أجل اصطناع معارضة وهمية وتدريب بعض عناصرها للقيام بدور الشرطة والمحرضين والمترجمين والجواسيس، وأصبحت هذه المعارضة التي تجتمع في أوروبا وأميركا، وفي فنادق الخمسة نجوم، من أقبح وأوقح أنواع المعارضة في العالم، إذ لا تتعدى الدكاكين التي تبيع الأوهام والأكاذيب، ويتباهى قادتها في المظاهر والترف والسفر، بحيث كانت المطارات، في بعض الأوقات، هي الأمكنة التي يلتقي فيها هؤلاء المعارضون بعد أن قاموا بالتنسيق مع مخابرات الدول المحلية وقدموا لها التقارير والمعلومات.

وأميركا في إطار هذا الحشد لا تكفّ لحظة واحدة عن الحديث عن أسلحة الدمار الشامل والإرهاب، وبالمقابل ما ينتظر أن يكونه العراق كواحة للديمقراطية بعد إسقاط النظام، والعالم يحبس أنفاسه لا يعرف كيف يمكن للمنطقة أن تواجه هذا العدد غير المسبوق من الأساطيل والصواريخ والطائرات والحشود العسكرية. والكذب لا يتوقف لحظة واحدة. حتى التقارير التي قيل إن المخابرات حصلت عليها، وقدمتها بريطانيا لمجلس العموم كدليل قاطع حول ما يملكه

العراق من أسلحة الدمار، هذه التقارير كانت «مسروقة» من رسالة جامعية قدمها أحد الطلبة قبل بضع سنوات.

VI

في مواجهة التعبئة العسكرية الأميركية، هبّت الشعوب في كل مكان تعترض وتحتج، وامتلأت الشوارع في كل مكان في العالم، ولأيام طويلة متواصلة، بمئات آلاف المتضاهرين الذين يعبّرون عن رفضهم وإدانتهم لهذا العدوان السافر الذي تهيّئ له أميركا، ومعها تابعتها إنكلترا، ويفضحون الكذب المكشوف الذي لجأت إليه الإدارة الأميركية، خاصة الرئيس بوش.

إن الجماهير الغفيرة، والتي قاربت حدود الثلاثين مليوناً، حاولت باستماتة أن تمنع العدوان، وأن تُظهِر كذب ونفاق السياسة

الأميركية، وما تحضّر له من وسائل للسيطرة على العالم، بادئة بالعراق، إذ عبر وضع يدها على هذا البلد ذي الموقع الاستراتيجي المتميّز، وعلى ثروته النفطية البالغة الأهمية الآن وفي المستقبل، فإنها تهيّئ للسيطرة على مواقع أخرى عديدة، تمهيداً لتشمل هذه السيطرة جميع أنحاء العالم.

هذه الجماهير العالمية التي أدركت بوعيها وحدسها حقيقة السياسة الأميركية، وهبّت للوقوف في وجهها، لم تمنع البنتاغون من مواصلة تحشيده للقوى والمعدّات، ومن الاستمرار في اختلاق الذرائع والأكاذيب، محاولاً جرّ الآخرين للمشاركة في الحرب العدوانية التي يُحضّر لها. لقد استغلت أميركا هيمنها على الأمم المتحدة، وخاصة مجلس الأمن، واستغلّت أيضاً القروض والمساعدات العسكرية التي تقدمها للدول الأخرى، واستخدمت نفوذها على الدول التابعة والصغيرة من أجل إقامة قواعد أو الحصول على التسهيلات التي تحتاج إليها.

خلال فترة أسابيع طويلة متواصلة، والعالم، كل العالم، يعبّر عن استيائه واحتجاجه، ويحاول أن يحمل حكوماته على اتخاذ مواقف لمنع الحرب، وثني أميركا عن القيام بها، لكن أميركا تصمّ آذانها، وتستغل تفوّقها من أجل فرض سياستها، مستهينة بالرأي العام العالمي، وضاربة عرض الحائط بتحفظات لجان المراقبة والتفتيش التي تطالب بمُهل إضافية للتأكد من وجود أو عدم وجود أسلحة الدمار الشامل، وتستغل أميركا الضجيج الذي يحدثه النظام العراقي، والمليء بالعنجهية والتحدي، مفترضاً أنها لن تقدم على العدوان، وأن العراق قادر على الصمود والمواجهة في حال المنازلة العسكرية.

ما حصل في هذه الفترة، ومن كلا الطرفين: الجماهير المحتشدة على امتداد ساحات العالم، والإدارة الأميركية وما تمثّله من قوى ومصالح، يدلّل على أن العالم دخل معركة جديدة، إذ إن الجماهير، ورغم الحائط الذي اصطدمت به، قد تعلّمت دروساً إضافية، وبالتالي ستكون أقوى في معاركها القادمة.

أما الولايات المتحدة، والتي استهانت بكل قوى الاعتراض والاحتجاج، فإن نتائج السياسة التي اتبعتها في أفغانستان ثم في العراق، لم تظهر كامل آثارها، وبالتالي لم تتبيّن بعد أضرارها، وما يمكن أن تجرّ إليه من تأليب الرأي العام في العالم كله ضد السياسة الأميركية، ثم ما تجرّه من خسائر في الأرواح والهيبة، وما تؤدي إليه من تدمير للمؤسسات والصيغ الدولية التي تعب العالم كثيراً من أجل إقرارها منذ الحرب العالمية الثانية وحتى الآن.

إن العالم كله على مفترق طرق الآن، فإما أن تتضامن الدول للحد من غلو السياسة الأميركية، وترشيد مواقفها المنفلتة من كل عقال، ووضع حد لطموحاتها غير المحدودة، وإما أن تنفرد أميركا، أكثر مما نشهد، في قيادة العالم نحو الجنون وربما الانتحار.

VII

ووقع العدوان، ولم تقع الحرب، لأن الحرب، كي تقع، يفترض أن تكون بين طرفين، أو عدة أطراف، وما حصل في بداية ربيع 2003 هو عدوان من طرف واحد، إذ رمت أميركا، ومعها تابعتها بريطانيا، بكل ثقلها من الصواريخ والطيران لكي تدمر أقصى ما تستطيع قبل أن تبعث بقواتها البرية لدخول المدن، وهكذا

اشتعلت الحرائق على مدى أيام وليال متوالية في بغداد، ومدن أخرى نتيجة الصواريخ وقصف الطيران، وحين دخلت القوات البرية في الختام كان كل شيء منتهياً، سواء من حيث التواطؤ الذي تم في مراحل العدوان الأخيرة مع قوى معينة في الداخل، أو من حيث عدم تكافؤ القوى نتيجة التدمير الشامل الذي لجأت إليه القوى الجوية الأميركية. وهكذا انتهت المعارك قبل أن تبدأ!

البرازاني وغاردنر والطالباني أثناء اجتماعهم في بلدة دوكان

وعلى ظهور الدبابات الأميركية دخل المعارضون الأشاوس، وافترضوا أن ساعتهم قد حانت كي يحكموا العراق، لكن الاجتماعات التي عقدوها على أطراف الصحراء، وبالقرب من أور التاريخ، لم تمكنهم من الاتفاق على شيء، كما أن أميركا أخذت تسحب اعترافها بهم شيئا فشيئاً، وأصبحوا، كما يقول المثل البغدادي، مثل معايد القريتين، فلا الشعب يعترف بهم أو بدورهم،

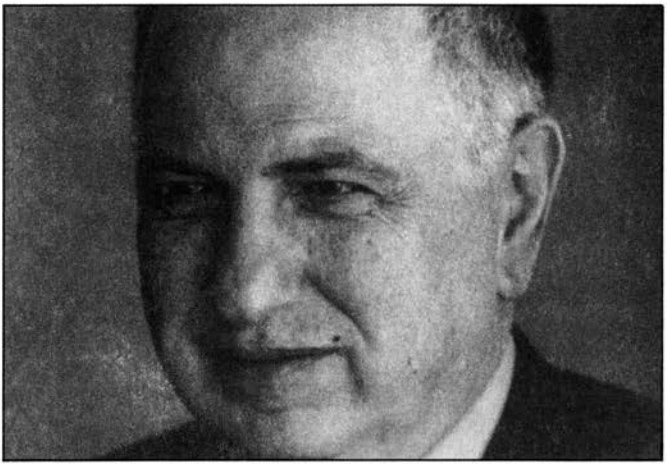

أحمد الجلبي

لأنهم ليسوا موضع ثقة بعد أن تربوا في أحضان أجهزة المخابرات، وأميركا لم تعد بحاجة إليهم بعد أن استلمت كل شيء بنفسها، ولم يعودوا قادرين على تقديم خدمات لها، لأنهم بلا جذور. ومثلما نسوا الوطن طوال سنين، فقد نسيهم الوطن، وأصبحوا يحنّون من جديد إلى الملاذات التي كانوا فيها.

منذ أن دخلت القوات الأميركية وسيطرت على كامل أرض العراق لم يُعثر على أسلحة الدمار، وأصبحت القوات الحليفة تطلب من الجماهير أن يدلّوها على أماكن تلك الأسلحة إذا عثروا عليها! أما الإرهاب والعلاقة مع منظمات إرهابية دولية فلم يتوفر دليل واحد يثبت مثل هذه العلاقة. أما الواحة الديمقراطية التي هدد الأميركيون بإقامتها في العراق لتكون قدوة للمنطقة كلها، فيبدو أنه لم يحن الوقت لإقامة هذه الواحة لكي تكون مصدر إشعاع للديمقراطية الأميركية! أكثر من ذلك، أن المظاهر البسيطة التي يفترض أن تكون

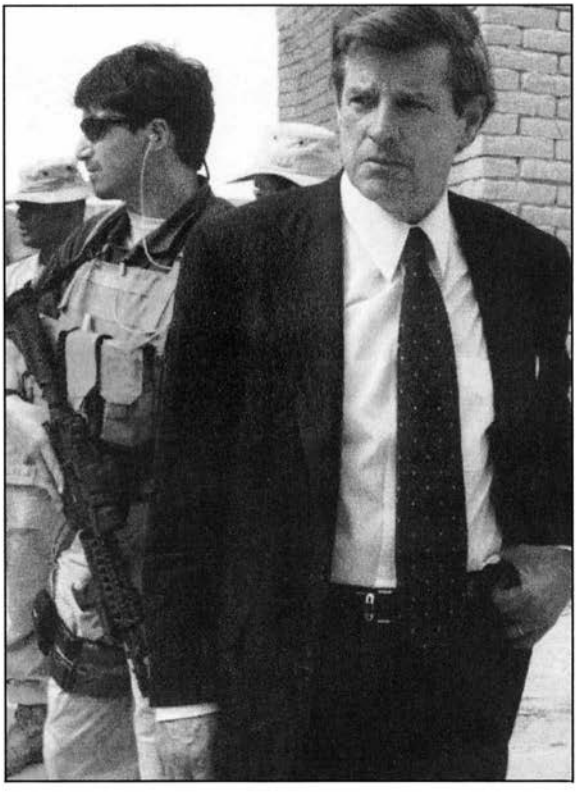

بول بريمر الحاكم الثاني للعراق يتجول في مدينة بابل

الأشكال الجنينية للديمقراطية، لم يسمح بها الأميركيون، فالرصاص الذي يقابل به المتظاهرون، والاجتماعات التي تفض بالقوة، وعمليات الحرق والنهب التي تجري بمعرفة السلطات الأميركية وتحت سمعها وبصرها، وغير ذلك الكثير، تدلل على أن كل يوم جديد يمر نبتعد أكثر فأكثر عن الديمقراطية. ومثلما وُضعت أفغانستان في البراد بعد أن تم الاستيلاء عليها، فإن مصيراً مشابهاً ينتظر العراق، ويجعل الشعارات التي رفعت قبل العدوان وأثنائه

مجرد خدع وأكاذيب، وقد بدأ الشعب يكتشفها عبر الدم الذي يراق كل يوم، وفي أمكنة عديدة من العراق، في محاولة لإحكام السيطرة وترويض الشعب. لكن هذا الشعب الذي خاض معارك كبيرة عبر تاريخه الطويل، وأثبت جدارته وشجاعته، واستطاع أن يتغلب على مكر الإنكليز ودهائهم، لقادر على منازلة الأميركيين من خلال وحدته الوطنية، والتحالف بين قواه السياسية والاجتماعية، خاصة وأن التلاحم الذي ظهر، ومنذ الأيام الأولى للعدوان، بين الجنوب والوسط والشمال، ورغم ما تسعى إليه قوات الاحتلال من زرع للفرقة، يهيّئ مناخاً إيجابياً للمنازلة ودحر الاحتلال، لأن الصلف الأميركي، والهمجية في التعامل مع الناس، وتلك الأساليب الإسرائيلية في اقتحام البيوت وتقييد المعتقلين وإهانة الكبار والصغار، لن تترك مكاناً للصبر والاحتمال، والمواجهات الصغيرة التي تقع كل يوم، وفي أمكنة عديدة من العراق، هي البشائر لما هو قادم.

VIII

ما علاقة كل الكلام السابق بهذا الكتاب؟

أولاً: إن اعتبار الصفحات التالية كتاباً مجرد مجاز، إذ كُتب معظمها بظروف خاصة، ومن الذاكرة بالدرجة الأولى، أو بمراجعة بعض هوامش «أرض السواد».

ثانياً: إنها ليست دراسات تاريخية، لأن الدراسة التاريخية تتطلب طريقة في البحث ومقداراً كافياً من التفاصيل التي تؤكد حدثاً وتحاول أن تثبت وقوعه بشكل معين. وهذه الصفحات عبارة عن رؤوس أقلام أكثر مما هي دراسة تاريخية.

ثالثاً: كما أن هذه الصور المتفرقة عن أحداث ومراحل من تاريخ العراق هي محاولة لتحريض الذاكرة لاستحضار غيرها، وإجراء مقارنة بين ما كان بالأمس وما يجري، أو ما يحتمل أن يجري اليوم وغداً، لذلك فإن المطلوب من الكثيرين، خاصة من المهتمين بالتاريخ، أن يعيدوا رواية الأحداث التي وقعت، والتي ترتبط بأحداث قريبة، كي يقولوا للناس كيف واجه الأجداد قوى الاستعمار وكيف كبّدوه خسائر فادحة، وأن يشيروا إلى أن وعي الناس وقدراتهم أكبر بما لا يقاس بوعي الأمس وإمكانياته، مما يستوجب الإقدام والمبادرة لحشد الجماهير من أجل تحرير الوطن، وعلى أسس مختلفة عن السابق، تلك الأسس التي جعلت الوطن يسقط قبل أن يحارب.

وأخيراً، إن درس العراق بمقدار ما يعني العراق بالدرجة الأولى والأساسية، فإنه يعني المنطقة كلها، لأن لأميركا مخططاً تريد تطبيقه لإحكام سيطرتها على المنطقة أولاً ثم مدّ هذه السيطرة إلى مناطق أخرى من العالم... إلا إذا بدأت المقاومة، كما حصل في فترات سابقة، واستطاعت أن تقف في وجه هذا المد البربري الذي يريد أن يغيّر العالم كله حسب مشيئته.

دمشق، أيار 2003

ديمقراطية أميركية للعراق

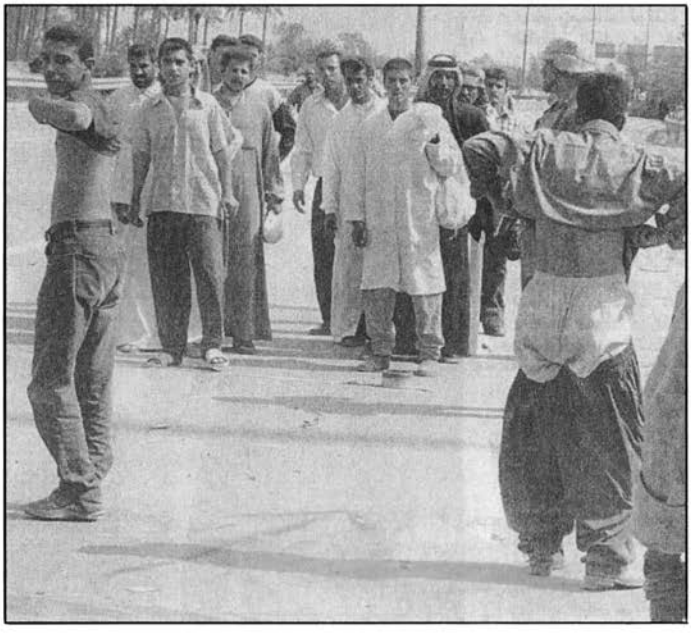

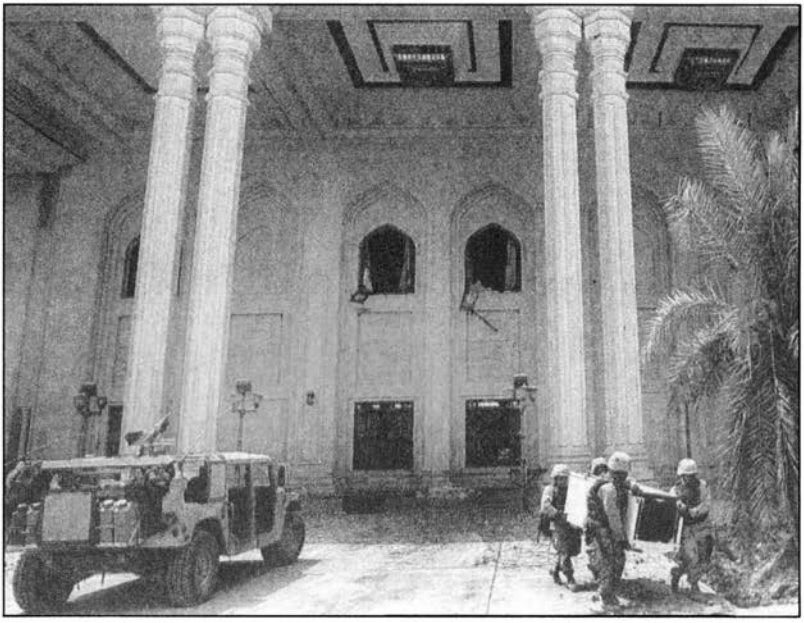

يبدو أنهم عثروا على سلاح دمار شامل!!

لا أهلاً ولا سهلاً

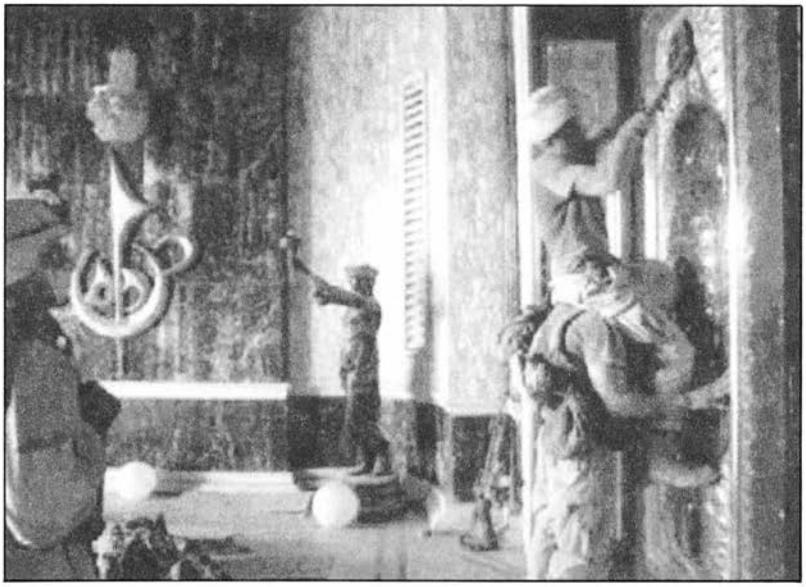

إرهابي مخبأ في الذهب الموجود على الباب!!؟

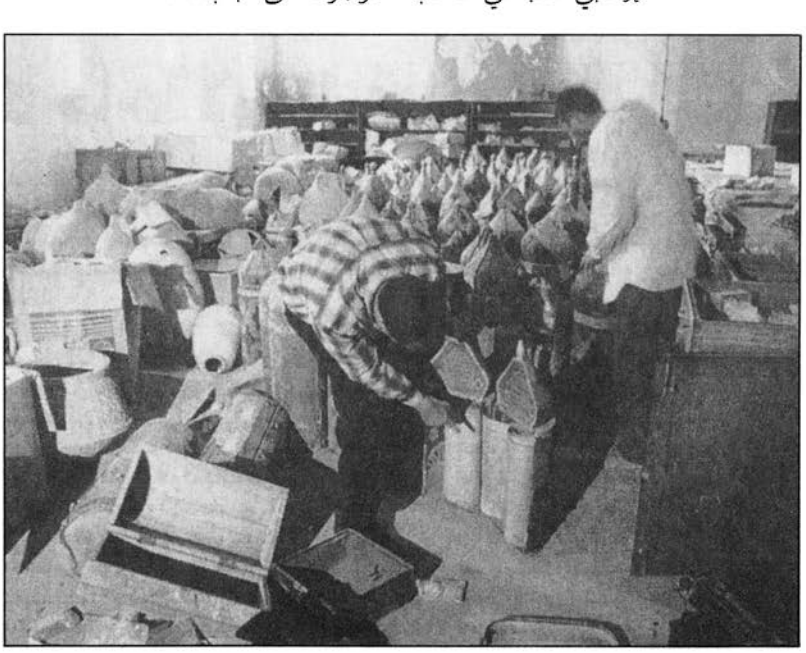

متحف بغداد. . . العالم كله يعرف!!

وزير الدفاع الأميركي رامسفيلد، سعيداً، في البصرة

قائد القوات الأميركية، الجنرال فرانكس، يعلّق نياشين النصر

ثورة العشرين

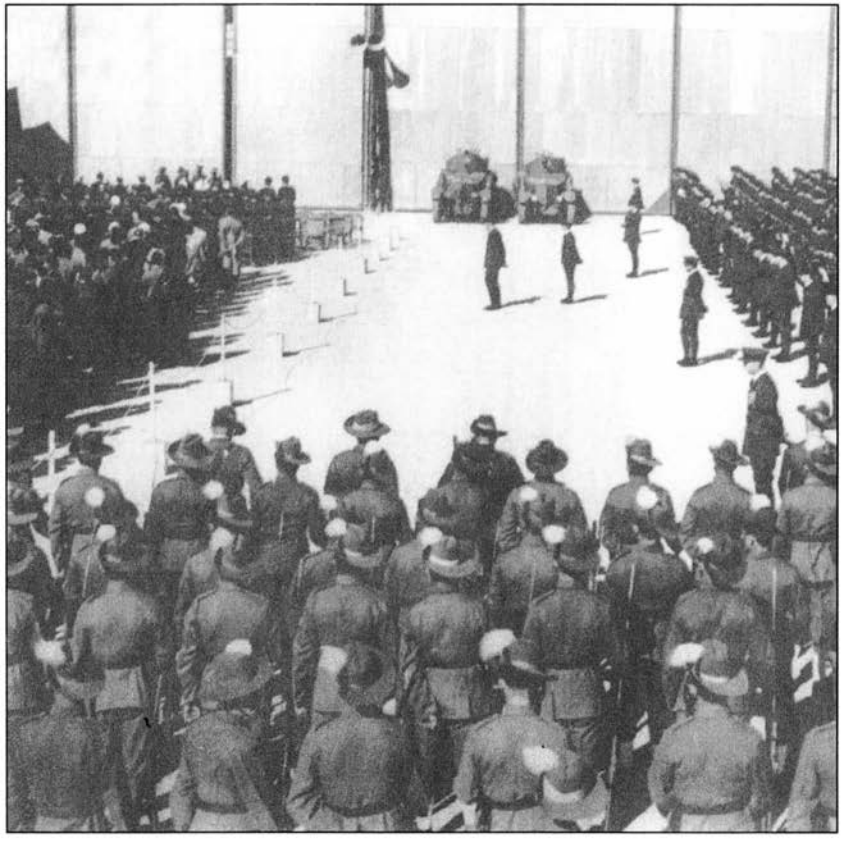

القاعدة العسكرية البريطانية في «الهنيدي» في العراق
وفي الصورة عسكريون ومدنيون بريطانيون وعراقيون

مكتبة
t.me/t_pdf

بعد أن تم الاستيلاء على العراق بكامله، ودخل القائد البريطاني، الجنرال مود، بغداد في آذار 1917، قال كلمته المشهورة مخاطباً الشعب العراقي: «لقد جئتكم محرراً لا فاتحاً». منذ ذلك الوقت أخذ الإنكليز يقيمون في العراق حكماً مباشراً، وتولّوا بأنفسهم الإدارة والسيطرة على الثروة، بما في ذلك إقامة الجهاز الإداري وفرض الضرائب وتعيين حكام للمناطق. وفي محاولة لاختصار نفقات قوات الاحتلال، وعدم تحميل الخزينة البريطانية أعباء إضافية، وأيضاً لمعاقبة المشاغبين والمتمردين من شيوخ القبائل، لجأ الإنكليز ليس فقط إلى مطالبة هؤلاء الشيوخ بما هو مستحق عليهم من ضرائب ورسوم، وإنما مطالبتهم أيضاً بضرائب سنوات سابقة، ومن لا يدفع يهدد بالعقاب.

كان من أوائل الذين عوقبوا بالاعتقال لامتناعهم عن دفع ضرائب سنوات سابقة: الشيخ شعلان أبو الجون، زعيم عشيرة الظوالم، لكن أفراداً مسلحين من العشيرة ذاتها هاجموا في اليوم نفسه سجن الرميثة وأطلقوا سراح الشيخ السجين، وكانت هذه الحادثة بداية ثورة العشرين، التي امتدت إلى سائر أنحاء العراق، واستمرت شهوراً طويلة، ودلّلت على أن العراق كان معبّأً ومحتقناً

نتيجة الحكم البريطاني القاسي والظالم، والذي كان يهدف إلى إذلال العراق، وإلى جعله تابعاً للحكم البريطاني المباشر.

أما كيف تطورت ثورة العشرين وكيف امتدت، فبعد أن بدأت بالرميثة، نشبت معركة ثانية بين قبيلة العكرة ووحدات من جيش الاحتلال التي أُرسلت من الديوانية، ثم حاصر الثوار مدينة السماوة، كما نسفوا خطوط السكك الحديد لمنع وصول النجدات من الجنوب، وهكذا تم حصار وحدات بريطانية عديدة وفي أمكنة عدة، وأخذت الثورة تسري إلى كل مكان بما فيها بغداد والشمال، وأصبح الإنكليز يواجهون صعوبات متزايدة لوقف الثورة أو الحد من انتشارها.

وإذا كان رجال القبائل، ثم زعماؤها، هم الذين بدأوا بالثورة، إلا أنها ما لبثت أن انتقلت إلى المدن، خاصة المدن المقدسة، إلى النجف وكربلاء والكاظمية وسامراء، إذ أعلنت هذه المدن «الحرب المقدسة» ضد المحتلين. كان الإعلان الأول في النجف، وتبعتها كربلاء فالمدن الأخرى، وكانت مطالب الثوار: منح العراق الاستقلال التام، وإطلاق سراح المعتقلين، ونقل القوات البريطانية من منطقة الفرات الأوسط. ولا بد من الاشارة هنا إلى الدور الذي لعبه رجال الدين، ليس فقط في إصدار الفتاوى حول ضرورة مواجهة الإنكليز ومحاربتهم، وإنما في تحريض الجماهير وتعبئتهم من أجل المشاركة في الثورة، بل ووصل الأمر ببعض رجال الدين أن كانوا على رأس وحدات عسكرية وهي تتجه إلى ساحات المعارك.

لقد أرسل المجتهد الأكبر في كربلاء، تقي الدين الشيرازي، عدداً من مساعديه إلى بغداد وإلى أماكن أخرى حاملين الشروط التي

يمكن أن يرضى بها الثوار لوقف القتال، وكانت هذه الشروط تتلخص في: ضرورة جلاء القوات البريطانية المسلحة عن الأماكن التي وصلت إليها واحتلتها وهي تواجه الثوار؛ وضرورة إطلاق سراح المعتقلين وعودة المنفيين وإعلان العفو العام.

فعل الشيرازي ذلك لأن الإنكليز بدأوا يحضون الحكام السياسيين في المناطق أن يقرنوا الأعمال العسكرية بالمفاوضات، كما فتحوا خزائنهم لإغراء الشيوخ ومحاولة شرائهم كي يغيروا مواقفهم ويتخلوا عن الثورة، خاصة وأن ثغرات كبيرة كانت تشوب الأعمال العسكرية للثوار من حيث قلة السلاح وكون معظمه من النوع القديم، والافتقار إلى الذخيرة. كما أن الصفة العفوية التي اتسمت بها الثورة منذ البداية جعلتها في حالة من الاهتزاز والتردد، الأمر الذي دفع الأكثر وعياً والأكثر حرصاً على الثورة أن يعملوا على الموازنة بين تحديد مطالب الحد الأدنى التي يمكن القبول بها، أو محاولة استمرار الثورة، لعل يكون في استمرارها إمكانية لتجاوز الأخطاء والنواقص.

لم تصل المفاوضات إلى نتائج، كما فشل الحكام السياسيون الإنكليز في إحداث شرخ في صفوف الثورة والثوار، لأن الانتصارات التي تحققت على قوات المحتلين، والخسائر التي أُلحقت بهم، والتجاوب الشعبي الذي أخذ يتسع ويزيد في أماكن عديدة، جعل الثوار أكثر تصميماً على مواصلة القتال وإرغام الإنكليز على تقديم تنازلات حقيقية.

ورغم الفشل الذي منيت به المحاولات الإنكليزية في اختراق الثورة، فقد واصلوا جهودهم سواء بجلب قوات إضافية من الهند،

أو زيادة الأسلحة والذخيرة للقوات الموجودة، ولم يتوقفوا عن اعتماد المال كوسيلة إغراء، وقد استطاعوا عبر هذه الوسائل وغيرها من تحقيق بعض الاختراقات، لكن أغلبها كان خجولاً ومحدوداً. فالشيخ الذي كانت قبيلته مع الثورة لا يستطيع أن ينتقل فجأة ودفعة واحدة إلى الضفة الأخرى، الأمر الذي جعله يحيّد قبيلته أول الأمر، أو أن لا تحارب بكامل قوّتها، مما كان يخفف عن الإنكليز بعض الشيء، أو يجعلهم يلقون بثقل قواتهم في مكان وتأجيل مكان آخر، إلى حين الانتهاء من الأول، وهكذا.

كانت جماهير الثوار أكثر تقدماً وتصميماً من قيادتها، إذ بالإضافة إلى صمودها وبسالتها، كانت تضغط على قيادتها أو تتمرد عليها، في محاولة لأن تستمر الثورة وأن تمتد إلى أماكن أخرى، وهذا ما حصل حين ضغطت الجماهير لمد الثورة إلى أماكن جديدة، إذ انتقلت الثورة بعد فترة قصيرة إلى منطقة الشامية، وانضم عدد من أبرز القيادات والقبائل، فقد انضم علوان الياسري وعبد الواحد سكر وآخرين من قبيلة بني حسن، وتم هجوم باتجاه الحلة وحررت مدينة الكفل، وقدّم الإنكليز في هذه المعارك ضحايا كثيرة، إذ سقط منهم ما يزيد على 180 قتيلاً و60 جريحاً، ووقع في الأسر 90 بريطانياً و80 هندياً، مما اضطر الإنكليز إلى الجلاء عن المسيب والهندية ومناطق أخرى، وقد أدى ذلك إلى زيادة حماس الثوار واستعدادهم للتضحية، فاندفعوا إلى الحلة واحتلوها، كما حرروا المعتقلين في سجونها، لكنهم لم يستطيعوا البقاء في هذه المدينة نظراً لتحصيناتها. وقام الثوار أيضاً بنسف خطوط سكك الحديد، وقطعوا طرق النقل الأخرى، مما أدى إلى صعوبة نقل القوات والإمدادات.

هذا الامتداد للثورة لم يُبقِ أي مكان بعيداً عن التأثر بلهيبها والمشاركة فيها، مما أخاف الإنكليز كثيراً، خاصة وأن الأصداء أخذت تتردد في بغداد ذاتها، مما جعل الإنكليز يبادرون إلى قمع المحاولات الأولى قبل أن تكبر وتتسع. وهذا ما دعاهم إلى مداهمة بيوت القادة أمثال جعفر أبو التمن ويوسف السويدي والبزركان، لكنهم اشتبكوا مع المدافعين عن هذه البيوت، الأمر الذي دفع عدداً من هؤلاء القادة، ومعهم أتباعهم، وفي محاولة للخلاص من الحصار، وكي لا يقعوا أسرى في أيدي القوات البريطانية، إلى مغادرة بغداد نحو الجنوب، إلى حيث تشتعل الثورة، وإلى أماكن أكثر ملاءمة والبدء من هناك بمشاغلة الإنكليز وتحريض الناس ضدهم. وكما اندفعت قوى كثيرة نحو الجنوب فإن قوى أخرى اندفعت نحو مناطق الشمال والغرب، وبدأت بنسف خطوط السكك الحديدية ومهاجمة الحاميات وقطع طرق التموين، مما أدى إلى اتساع نطاق الثورة وامتدادها إلى مناطق جديدة. كما جعل الإنكليز يعانون صعوبات أكثر من قبل، خاصة وأن من جملة النتائج لعمليات التخريب التي كان يقوم بها الثوار أن منعوا وصول الأغذية، مما تسبب بحالة أقرب إلى المجاعة بين قوات المحتلين، لأن كثيراً من المواد الغذائية التي تحتاج إليها الحاميات الإنكليزية كانت تصل من إيران، أما بعد قطع طريق بغداد - خانقين، والذي يعبر من منطقة ديالى، فقد أصبح الحال خطيراً بالنسبة للقوات البريطانية.

يضاف إلى ذلك أن طريق الفرات، وبعد أن تحركت قوات البادية الغربية، وكان على رأسها ضاري المحمود، أصبحت صعبة أو مقطوعة، لأن الثوار استولوا على ضفاف النهر، وتحركت البلدات

التي على ضفافه لمناوءة الإنكليز واعتراض السفن العابرة، وكان لإغراق بعض هذه السفن تأثير كبير في وقف الملاحة وتكبيد القوات الإنكليزية خسائر فادحة. كما سرت آثار هذه المقاومة إلى الشمال، مما أدى إلى سقوط الكثير من البلدات والقرى، إذ احتل الثوار المنطقة الواقعة بين راوندوز وكفري، ولم تستطع أربيل الصمود في وجه الثوار.

أصبحت الثورة، بعد قيامها بشهرين، تعم معظم مناطق العراق، في الجنوب والشمال والوسط، واضطرت القوات الإنكليزية إلى الانسحاب من الكثير من المناطق، والتحصن في حاميات للدفاع عن النفس. فقد انسحبت هذه القوات من سوق الشيوخ بعد أن استولى الثوار على الكوت ووصلوا إلى القرب من البصرة. ولم تمر فترة إضافية إلا وأصبحت أغلب مناطق العراق تحت سيطرة الثوار، إذ ما عدا بغداد والبصرة، والتي كانت تتمركز فيها القوات البريطانية، وكان يحاصرها الثوار أيضاً، فإن باقي المناطق كانت محررة وتخضع لسيطرة الثوار.

وما كاد يحل شهر أيلول، أي بعد مرور ثلاثة شهور على قيام الثورة، حتى أصبحت مهمة القوات البريطانية الدفاع عن المناطق المحاصرة، وتأمين الحد الضروري من الإمدادات لها. ولأن الثوار قطعوا أغلب الطرق، وأغرقوا عدداً من القوارب المسلحة، فقد لجأت القوات البريطانية إلى الطائرات لإيصال المؤن والإمدادات، وكثيراً ما وقعت الذخيرة والمؤن التي تلقي بها الطائرات لقواتها بأيدي الثوار، وكانت هذه أحد أهم مصادر التموين للثوار.

وكلما ضاق الحصار على قوات الاحتلال، وزادت المصاعب

التي تواجهها، ازدادت هذه القوات شراسة في تعاملها مع السكان في المناطق التي تسيطر عليها، إذ إضافة إلى حرق المحاصيل الزراعية، كانت تقوم بحملات عسكرية بالغة الشراسة والقسوة لمعاقبة السكان، وكانت لديها دائماً الحجج الكافية التي تتذرع بها لمعاقبة هؤلاء. وبلغ الأمر في بعض المناطق والحالات حدّ إعدام الذين يعتبرون محرضين، كما تمّ نفي قسم آخر منهم. كل ذلك في محاولة لإدخال الخوف في قلوب الناس ومنعهم من مساعدة الثوار، لكن الناس، وهم يسمعون كل يوم أنباء هزائم الإنكليز وتزايد عدد القتلى والأسرى، يزدادون إصراراً على المقاومة.

نتيجة زيادة الخسائر البريطانية، البشرية والمادية، وصل الاستياء إلى البرلمان الإنكليزي وإلى صحافة لندن، فناقش ما يحصل في العراق، وقد ارتفعت أصوات تتطالب بجلاء القوات البريطانية، والتخلي عن لواء الموصل على وجه التحديد باعتباره موضع نزاع بين تركيا من ناحية وبين كل من العراق وبريطانيا من ناحية ثانية.

هذا الوضع المعقد والمربك للقوات البريطانية في العراق، وللسياسة الاستعمارية البريطانية على المستوى العام، دفع إلى زيادة الجهد من أجل اختراق الثورة وإسقاطها من الداخل، فعملت بالتركيز على بعض التردد الذي أخذ ينتاب قِسماً من قياداتها، وبالتركيز على استغلال الشروخ الناتجة عن الفروق الطائفية والمذهبية والتنافس بين المناطق.

ولافتقار الثورة، منذ البداية، إلى قيادة موحدة، ولعدم وجود تنسيق كافٍ بين المناطق، والتفاوت بين القادة، استطاع الإنكليز أن يجدوا لهم موطىء قدم هنا وهناك، إذ تخلى بعض الشيوخ، والتزم

آخرون الحياد، وتواطأ غيرهم سراً أو علانية على الوقوف في وجه الثوار. ومما جعل لهذه الامور آثارها أن الثورة ظلت ضمن حدودها الجغرافية، إذ لم تستطع أن تتواصل مع القوى والحركات خارج العراق، كما تعثرت صحافتها المتواضعة فتوقفت عن الصدور، أو صدرت بغير انتظام، وهذا أدى إلى غياب المفاهيم والمواقف المشتركة، وإلى زيادة المصاعب التي تواجه الثوار نتيجة العجز المالي المتزايد، والافتقار إلى السلاح والذخيرة، والى انعدام الصلة مع الأقطار المجاورة، بل ولانعدام أو تباعد الصلة بين زعماء الثورة أنفسهم، وفي حالات أخرى إلى اختلافهم حين يلتقون من أجل مناقشة مواقف وسياسات تساعد على المواجهة المشتركة للإنكليز.

إن من جملة نقاط الضعف التي شابت الثورة، ومنذ البداية، أنها كانت عفوية، أي ردات فعل على حالات طارئة. وعندما أصبحت حقيقة قائمة وعمّت جميع المناطق، فقد حصل ذلك نتيجة التضامن والانفعال وليس نتيجة الاتفاق والتصميم، نظراً لضعف الوعي لدى القادة أو لدى الشعب في العراق كله. كما أن الكثيرين من الذين قادوا الثورة كانوا يفتقرون إلى الكفاءة الفنية، إذ إن أغلبهم لا يفقهون إلا القليل في الشؤون العسكرية، ومعظم معلوماتهم من النسق القديم الذي لا يلائم الخطط العسكرية الحديثة التي يملكها المحتلون، ولا يناسب الأسلحة الحديثة التي بين أيدي خصومهم. كان معظم الثوار لا يملكون الأسلحة النارية، خاصة من الأنواع الجديدة، عدا تلك التي غنموها من المحتلين، وإذا ملكوا بعضها فإنهم لا يملكون الذخيرة، ولا يعرفون الأساليب التي تمكنهم من استعمالها على أفضل وجه.

كان قسم كبير من الثوار لا يملكون سوى أسلحة فردية بدائية ومتواضعة، وكان بعضهم يلجأ إلى المقوار[1] والفالة[2] كأسلحة، والتي أصبحت رمزاً لتلك الثورة، يضاف إليها المفتول[3] الذي يشكل وسيلة للحماية أو لمناوشة الأعداء أثناء تقدمهم أو حصارهم بعض القرى.

تشير بعض المصادر الإنكليزية إلى أن من بين 130 ألف ثائر كان 16 ألفاً منهم يمتلكون أسلحة حديثة، و43 ألفاً يمتلكون أسلحة قديمة، أما البقية فكانوا مزودين بالسلاح الأبيض فقط[4]، وحتى السلاح الذي كانوا يغنمونه من القوات المحتلة لم يستطيعوا استعماله بكفاءة لعدم الخبرة أو لعدم توفر الذخيرة وقطع الغيار.

ولأن الإنكليز استمروا بجلب القوات من الهند ومن المستعمرات الأخرى، وفتحوا باب التطوع في بريطانيا ذاتها مما أدى إلى وصول أعداد من الشوفينيين القوميين المتحمسين، فإن موازين القوى بين الطرفين أخذت تميل تدريجياً نحو الإنكليز، خاصة وأن الثوار اكتفوا بما وصلوا إليه، ولم يستطيعوا التقدم أكثر من ذلك، أو حتى تحسين موقفهم القتالي.

---

(1) المقوار: عصا قوية تنتهي برأس مدبّب من القير، ويوضع في هذا الرأس عادة مسامير أو أشياء حادة كي تخلّف أكبر أذى بمن يضرب بها.

(2) الفالة: الرمح الذي يستعمل غالباً في صيد الأسماك، ويمكن أن يستخدم كسلاح بأن يرمى على الخصم أو أن يطعن به.

(3) المفتول: بناء عالٍ على شكل برج، وأقرب ما يكون إلى المئذنة، فيه فتحات من جميع جوانبه، ومن هذه الفتحات يراقب العدو القادم، كما يستعمل لإطلاق الرصاص أو إلقاء الرماح.

(4) كوتلوف، **ثورة العشرين**، مكتبة النهضة ودار الفارابي، بغداد وبيروت، سنة 1975.

هذه القوى والإمكانيات، بما في ذلك نقل قوات من الجنوب، جمعت في مناطق استراتيجية وضعيفة في آن واحد، جمعت في ديالى، التي لم تستطع أن تتواصل جغرافياً مع مناطق الثورة الأخرى، خاصة في الجنوب، لكي تبدأ هجومها من هناك. بهذا التركيز والضغط المتواصل استطاعت القوات البريطانية أن تحقق بعض النجاحات، والتي انعكست بآثارها على المناطق الأخرى وأدت إلى إضعاف معنويات الثوار، وقد ترافق هذا مع خيانة أو جبن عدد من الشيوخ الذين أعلنوا استسلامهم. واستمر الإنكليز في زحفهم إلى المناطق المجاورة، إلى البادية الغربية وألحقوا بالثوار هناك هزائم قاسية.

بعد هذه الانتصارات حشدت بريطانيا قواتها تمهيدا لمعارك الجنوب، وما كاد شهر تشرين الثاني يبدأ حتى بدأت هجومها في الفرات الأوسط، ورغم الخسائر في صفوفها فقد واصلت تقدمها واستولت على النقاط الاستراتيجية ثم على مدن الحلة والناصرية، وقد دافع الثوار ببسالة عن كل موقع وحاولوا التشبث لآخر لحظة ممكنة، لكن فارق القوى والأسلحة لم يتح للثوار الصمود والاستمرار. ففي منطقة كربلاء مثلاً كان التصميم قويا للدفاع عن المدينة ومنع سقوطها، لكن نتيجة الخسائر الفادحة اضطر الوجهاء ورجال الدين إلى مفاوضة الإنكليز والاتفاق على شروط الاستسلام. وبعد كربلاء تم احتلال النجف، مما اضطر الثوار إلى الانسحاب نحو الجنوب والدخول إلى الأهوار. وقد لعبت الطائرات في هذه المرحلة دوراً مهماً في ملاحقة الثوار وقصف حشودهم، وتمهيد الطريق أمام القوات البرية البريطانية للوصول إلى الرميثة والديوانية ثم

الشامية، وبهذه الطريقة أمكن القضاء على الثورة ومحاصرة من تبقى من الثوار، لتبدأ بعد ذلك مرحلة جديدة.

ترافقت هذه المرحلة مع وصول السير بيرسي كوكس، كمندوب سامي لحكم العراق، واتجه التفكير بعد تجربة الثورة إلى التخلي عن الحكم المباشر، واعتماد صيغة الحكم الوطني الموالي والمعتمد من قبل الإنكليز. وأخذ البحث يتواصل عن الشخص الأكثر ملاءمة ليكون واجهة الحكم الجديد، وبين رهط المتقدمين والذين طرحوا أنفسهم، كان فيصل بن الحسين من وقع عليه الاختيار، وبدأ البحث عن الفريق المساعد الذي يشاركه أداء هذه المهمة.

باختيار الحكومة المؤقتة، والاتجاه إلى اختيار فيصل ملكاً للعراق، اعتبرت الثورة منتهية، فأعلن أغلب قادة الثورة استسلامهم وتسليمهم بالصيغة الجديدة، ومَن رفض الاعتراف أو قاوم استطاع ذلك لفترة قصيرة من الزمن، اضطر بعد ذلك إلى الخضوع أو إلى الهروب، إذ لجأ عدد من الثوار إلى سوريا أو إلى الحجاز، وتوارى بعضهم في الأهوار أو في أمكنة حصينة، وظلت هناك جيوب للمقاومة تقوم بغارات على قوات أو أهداف بريطانية بين فترة وأخرى.

إن ثورة العشرين، رغم عفويتها وعدم وجود قيادة موحدة لها، ورغم فارق السلاح ونوعيته بين الطرفين، فقد كانت أول ثورة عربية في المشرق تقوم ضد الاحتلال وقواته، وقد كبّدت المحتلين خسائر فادحة، كما غيرت نظرتهم للكيفية التي يجب أن يحكم بها العراق، إذ بعد رغبة وممارسة الحكم المباشر، اضطر الاحتلال إلى استبدال هذه الصيغة بالحكم الوطني. ولا بد من الإشارة إلى أن هذه الثورة

اتسمت بالشمول وعمّت جميع المناطق، وارتفعت فوق الانقسامات الطائفية والمذهبية، وكانت بمجملها تعبيراً عن موقف وطني جامع وشامل، الأمر الذي قدم نموذجاً لما يجب أن تكون عليه الثورات الوطنية، والتي أثرت في محيطها الضيق، في العراق، ثم في المحيط الواسع، العربي، وكانت موضع قدوة وتقدير.

الشيخ ضاري المحمود
والكولونيل لجمان

الشيخ ضاري بن ظاهر المحمود

في أعقاب ثورة العشرين ضد الاحتلال البريطاني في العراق، لجأت بريطانيا إلى التخفي وراء واجهة «وطنية»، لأن الحكم الاستعماري المباشر يستفز المواطنين ويؤلّبهم ضد الغزاة، في حين تكون المتاريس «الوطنية» قادرة، في بعض الأحيان، على امتصاص النقمة وتأجيل الانفجارات المحتملة.

لجأت بريطانيا أيضاً إلى إعادة النظر بمواقع رجالها، وبالمهمات المنوطة بهم، وبالبؤر التي ساهمت في الثورة وكانت لها فيها أدوار مهمة، لتجتث العناصر الخطرة ولتمنع تكرار المناخات التي تؤدي إلى الثورة مرة أخرى.

من جملة المناطق التي أولتها بريطانيا عناية خاصة: البادية الغربية الممتدة على ضفاف الفرات، لكي تؤمّن الملاحة لسفنها، وبالتالي السيطرة على المنطقة الوسطى صعوداً حتى الحدود التركية في الجزيرة. وباعتبار أن قبيلة زوبع الكبيرة تسكن هذه المنطقة، ولأن زعيم هذه القبيلة وعدداً غير قليل من أفرادها شاركوا في الثورات والتمردات، فقد جاء الآن الوقت للانتقام وتصفية حساب الماضي من ناحية، ولتجنّب تكرار مثل هذه المشاركة في المستقبل من ناحية ثانية.

كان من ضمن الوسائل التي اعتمدتها بريطانيا في معاقبة المنطقة

وزعمائها أن شددت عليها الحصار، واتهمت الكثير من أفراد زوبع بقطع الطرق، وجعل الملاحة في الفرات صعبة أو مستحيلة، اللهم إلا إذا كانت على شكل قوافل وبحراسة عسكرية مشددة. كما لجأت بريطانيا إلى التضييق على الزعماء وعلى الذين شاركوا في الثورة، من خلال زيادة الضرائب أو المطالبة بضرائب سابقة، وفي حال التأخر أو الامتناع عن أدائها ضمن المهل المحددة، كانت بريطانيا تقطع المياه عن أجزاء كثيرة من المنطقة، لإتلاف المحاصيل الزراعية، ولإلحاق أكبر الأذى والخسائر بالسكان وبالثروة الحيوانية، الأمر الذي كان يضطر العديدين إلى الرحيل نحو المراعي والمياه، وإلى العودة من جديد لحياة البداوة الكاملة.

وإذا كان هناك مواقف لا تحصى لمقاومة السكان للاحتلال البريطاني، والمتاعب التي خلقوها لهذا الاحتلال، فإن الصراع الذي دار بين الشيخ ضاري المحمود، زعيم قبيلة زوبع، والكولونيل لجمان، المسؤول البريطاني السياسي للبادية الغربية، يعتبر مظهراً للإصرار المتبادل بين الطرفين على أن ينهي كل منهما الآخر، ليس من خلال تسجيل النقاط، وإنما بالضربة القاضية إذا أمكن!

فالشيخ ضاري الذي شارك في ثورة العشرين، وكان همزة الوصل بين الثورة في الفرات الأوسط والجنوب، وبين المنطقة الوسطى فالشمال، كان يموّن الثورة بالرجال والسلاح والمؤونة من أجل استمرارها وتحقيق النصر على الغزاة، والإنكليز الذين عانوا الكثير ودفعوا ثمناً غالياً لأن العراق ثار من شماله إلى جنوبه، لم ينسوا مواقف أعدائهم، وكانوا يتحيّنون الفرص لكي ينتقموا منهم، وكان الشيخ ضاري ضمن هؤلاء، خاصة وأنه مثّل التحالف العضوي

الوثيق بين السنّة في علاقتهم مع الشيعة في مواجهة الغزاة، وامتزجت الدماء بعضها ببعض لتؤلف صيغة نموذجية للمقاومة الوطنية العامة والشاملة.

أما الكولونيل لجمان، الطرف الثاني في هذا الصراع، فيُعتبر واحداً من الرهط المتقدم للجواسيس البريطانيين الذين أمّوا المنطقة العربية ولعبوا دوراً مميزاً، خاصة في العراق.

الكولونيل الإنكليزي لجمان

وُلد لجمان في مدينة بتر سفيلد الإنكليزية عام 1880، ودرس العلوم العسكرية في كلية ساند هرست، وتخرّج منها متفوقاً ليبدأ مغامراته فيّ شتى المستعمرات البريطانية، بدءاً من جنوب إفريقيا إلى الهند. وبعد أن جال في أماكن عديدة، استهوته البلاد العربية بشكل خاص، فتوقف طويلاً في موانئ الخليج العربي، ولم يترك بلدة عربية في المشرق إلا وزارها. فمن القدس إلى حلب إلى بيروت فدمشق إلى القاهرة، ثم المدن الأصغر مثل دير الزور وطرابلس وصيدا وغيرها الكثير. وفي إحدى زياراته بدأ بتعلّم العربية، وكان له مدرسون في معظم المدن التي زارها أو مرّ بها، وكان لهؤلاء المعلّمين أكثر من دور، يتضح ذلك من خلال الخدمات التي كانوا يقدمونها للجمان أو المهمات التي كانوا يقومون بها. ورغم أنه كان موضع شك من قبل السلطات التركية، وخضع لمراقبة «الخفية» أي البوليس السري التركي، فقد استطاع أن يموّه تحركاته ويواصل مهماته، سواء عن طريق تغيير الزي الذي كان يرتديه، أو من خلال المهن التي كان يمارسها.

في عام 1910، وبعد أن غادر كربلاء توغّل في الصحراء مسافة 750 ميلاً ثم رجع إلى بغداد ليبدأ رحلة إلى كردستان والأناضول قاطعاً 1300 ميل، ليعود مجدداً إلى فلسطين، و«ظل هناك وقتاً طويلاً يكتب التقارير عما رآه في جولاته إلى قيادة الجيش الهندي ومكتب الاستخبارات، ويحرر المقالات لمجلة الجمعية الجغرافية الملكية».

وبعد تطواف واسع وأعمال متعددة أخذ يخدم في دائرة الاستخبارات البريطانية في البصرة متعاوناً مع السير برسي كوكس وولسن وفيلبي «وكان بين مساعديه عالم الآشوريات المعروف ايس».

اشترك لجمان في جميع المعارك التي دارت بين الإنكليز والجيش التركي في العراق، بدءاً من البصرة حتى الموصل. أما بعد أن وضعت الحرب العالمية أوزارها، فقد تنقّل في وظائف وأماكن إلى أن أصبح المسؤول السياسي عن البادية الغربية، وفي هذه البادية بدأ النزال بينه وبين الشيخ ضاري.

إذا تركنا كمّاً غير قليل من التفاصيل المتعلقة بنظرة لجمان وموقفه من ضاري المحمود وزوبع خلال الفترات السابقة، فإن الاجتماع الذي عقده لجمان في الرمادي لوجهاء المنطقة وشيوخها، وكان بينهم ضاري، حدد المواقف والاحتمالات بصورة نهائية. ففي الوقت الذي كان فيه لجمان يعزف على الوتر الطائفي ويحاول أن يزرع الانقسام والفرقة، كان الشيخ ضاري ضد هذا الطرح، وقال رأيه بصراحة، كما اشتبك مع لجمان في مناقشة حامية وهو يشجب الروح الطائفية، ويطلب من المجتمعين نبذها، والتشبث بالروح الوطنية الجامعة لأنها وحدها وسيلة النجاح والشرف والارتباط بالوطن.

ترك لجمان شهراً يمر بعد هذا الاجتماع وبعث يطلب من ضاري أن يوافيه إلى «خان النقطة» وهو مقر عمله، ويقع بين الفلوجة وأبو غريب. وضاري الذي اعتذر أكثر من مرة عن تلبية الطلب بحجة المرض ما لبث أن اضطر إلى لقائه، وقد حصل هذا اللقاء يوم 12 آب 1920.

وصل ضاري إلى «خان النقطة» قبل وصول لجمان إليه، فقد قضى لجمان ليلتة السابقة في بغداد وتناول طعام العشاء مع المس

بيل، ومع قادة آخرين، وقد تداولوا في الخطة التي يجب اتباعها مع ضاري.

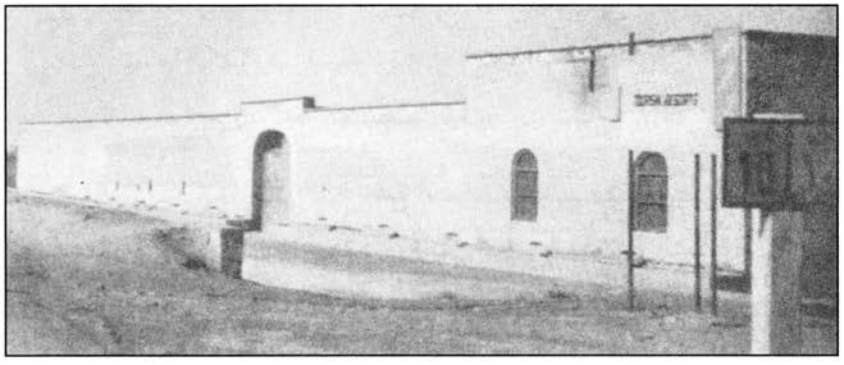

«خان النقطة»

ما كاد لجمان يصل إلى المخفر حتى ادّعى أنه اضطر إلى سلوك طريق غير عادي، نظراً لأن زوبع تقطع الطرق. كان وهو يتحدث مع ضاري يشتم ويتهم بهدف الاستفزاز والتحدي، وكان ضاري يحاول ما استطاع أن يتحمل ويصبر ويوضح، لكن الطرف الآخر يزداد حدّة ورفضاً. وفي هذه الأثناء وصلت جماعة وهي تصيح وتستنجد معلنة أن البدو قطعوا الطريق وسلبوا المسافرين، فطلب لجمان من القوات الموجودة في المخفر أن تصطحب عدداً من رجال ضاري وتتعقب الجناة، ودخل مجدداً غرفته ومعه ضاري، واستمر في الإهانة والتأنيب، ووصل الأمر حدود التهديد بالتصفية إذا لم يغير ضاري في سلوكه ومواقفه، وأشار إلى ما لحق عدداً من الزعماء الوطنيين نتيجة عدم الامتثال لأوامر بريطانيا من نفي وسجن وتشريد. وضاري الذي كان يستمع وينفي أية مسؤولية عما وقع من حوادث، وأن

زوبع لم تشارك فيها، حاول أن يتجنب الصدام، لكن حين بلغت الإهانات حداً جارحاً أقرب إلى السباب والشتائم خرج ضاري من الغرفة للحظة وأبلغ من بقي من جماعته، وبكلمات قليلة، أن لجمان تجاوز كل الحدود في التعامل معه، وهنا هبّ أقرباء ضاري وأفراد من جماعته لنجدته.

أطلق ثلاثة من رجال ضاري، ابنه ومعه اثنان، النار على لجمان وأصابوه إصابات بالغة، وحين كان يتخبط بدمائه ولم يمت، أجهز عليه ضاري نفسه بالسيف، وهكذا انتهى واحد من أشرس ضباط بريطانيا وأكثرهم دموية وقسوة، وكانت خسارته بنظر قادته ورؤسائه كبيرة لا تعوض.

يقول بعض مؤرخي حياة لجمان «إنه كان جريئاً ونشيطاً وذا مزاج شاذ يقوده في أغلب الأحوال إلى التهور» ويعتبر الإنكليز أنه ساهم «بقسط وافر في سياسة بريطانيا على الصعيد العربي أكثر من أي شخص آخر»[1] ووصفته وزارة الحربية الإنكليزية بعد مصرعه «بأنه رجل أقوى من الصعاب، وأنه يستطيع السفر والعيش دونما شوق إلى وسائل الراحة التي وفرتها للإنسان حضارة الغرب، وأنه كان معتداً بثقافته الأوروبية»، وتضيف الوزارة المذكورة أنه «كان قادراً على مشاركة وجدانية في تقاليدها الثابتة، وعلى العيش عيشة عربية بالرغم من تشبثه بتفكيره الخاص»[2].

بعد مقتل لجمان بدا واضحاً أن المنطقة بأسرها، وزوبع على

---

(1) عبد الحميد العلوجي وعزيز جاسم الحجية، الشيخ ضاري قاتل الكولونيل لجمان في خان النقطة، بغداد 1968.

(2) المصدر نفسه، ص 11.

التحديد، ستتعرض للانتقام، الأمر الذي دفع الجميع للتحسّب والاستعداد وإلى المبادرة لإشغال الإنكليز ومن ثم إلى إرهاقهم، فتم الاتصال بالقبائل الأخرى والتنسيق معها، وإحياء الأحلاف القائمة بينها، كما لجأ ثوار زوبع إلى قطع الملاحة في نهر الفرات، وإلى تكبيد السفن التي تمر فيه خسائر فادحة، إذ أغرقوا بعض السفن، وإلى قتل عدد كبير من أفراد الحاميات الإنكليزية، وإلى نسف أجزاء من السكة الحديدية لمنع وصول الإمدادات والنجدات، كما اشتبكت هذه القوات مع القوات الإنكليزية في أكثر من موقع. ولعل أبلغ الخسائر وأكثرها تأثيراً سيطرة الثوار على النهر وشل الحركة فيه، مما أعاق حركة الإنكليز وجعلهم يحشدون قوات كبيرة لمعاقبة القرى وسكان ضفاف النهر. وبعد جهد وتضحيات كبيرة قُدِّر لبريطانيا أن تحرر سفنها المأسورة وأن تنقذ أعداداً من الجنود والبحارة الذين كانوا على متونها، وبدا واضحاً أن الكفة أخذت تميل لصالح الإنكليز، مما دفع ضاري وعدداً كبيراً من المقاتلين إلى الاتجاه نحو الشمال، خاصة بعد أن توسّع استعمال الطيران في ملاحقة للثوار، وبعد أن وقعت عدة معارك كانت الغلبة في أكثرها للجانب البريطاني، نتيجة التفوق بالأسلحة الحديثة والأعداد الكبيرة من الجنود التي تم حشدها.

في 23 أيلول أمر الفريق هولدن بتوجيه قوة عسكرية كبيرة للقضاء على مقاومة ضاري، فدكّت هذه القوة قلعته وقطعت الماء عن مزارعه مما أدى إلى انكسار الثوار. وفي اليوم التالي احتفل بالفلوجة بالنصر على زوبع وضاري، وبدأ الثوار التفكير في الانتقال إلى مكان أكثر أمناً، وباعتبار أن زوبع تنتشر على ضفاف الفرات فقد

اتجهت الأنظار إلى جبل سنجار والجزيرة وصولاً إلى ماردين، وهكذا ارتحل القوم إلى هناك.

ورغم أن عفواً عاماً صدر بعد ثورة العشرين، إلا أنه استثنى ضاري وأولاده وعدداً من زوبع، مما اضطر هؤلاء إلى البقاء في الأماكن التي وصلوا إليها، فأقام ضاري في قرية من قرى الجزيرة السورية حتى عام 1927.

تقدم ضاري كثيراً في العمر وتعرّض لأمراض عدة، مما أدى إلى إنهاكه وثقل حركته واضطراره إلى مراجعة الأطباء بين فترة وأخرى. وفي إحدى هذه المراجعات، وكان يفترض أن يتوجه إلى حلب للمعالجة، فقد حمله سائق سيارة الأجرة، والذي كان متواطئاً مع الإنكليز وعيناً على ضاري، حمله بالاتجاه المعاكس وسلمه إلى مخفر سنجار، وكان ضاري وحيداً وأعزل ومريضاً، فأُوقف بضعة أيام في المخفر المذكور ثم نقل بعدها إلى بغداد.

في بغداد لم تتح السلطات البريطانية لضاري إمكانية المعالجة فأخذت صحته تسوء وتتدهور يوماً بعد آخر، ورغم ذلك قدّم للمحاكمة، وزعم الطبيب الإنكليزي الذي فحصه أن المتهم في وضع صحي يحتمل المحاكمة. وقد جرت المحاكمة فعلاً، وقدمت السلطات عدداً من الشهود الذين شهدوا ضده، في الوقت الذي امتنعت فيه أو أخّرت سماع عدد من شهود المتهم، وبعد محاكمة سريعة وشكلية، كان المتهم خلالها في حالة من المرض الشديد والإعياء البالغ، بحيث بدا أقرب إلى الغياب عن الوعي، وبالتالي عاجزاً عن الدفاع عن نفسه. وصدر الحكم على الشيخ ضاري بالإعدام ثم ما لبث أن خُفّف الحكم إلى الأشغال الشاقة المؤبدة.

كان ضاري في الثمانين من العمر عندما صدر عليه حكم الإعدام، وفي لحظة وعي قال للقضاة إنه على وشك الموت ولا يبالي بأي حكم يصدر عليه، وإنه إذا لم يمت الآن، وفي هذا المكان، فسوف يموت غداً في السجن. وهذا ما حصل بالفعل، إذ ما كاد يصل إلى السجن حتى اشتد مرضه ودخل في غيبوبة، وبدل أن ينقل إلى المستشفى فقد جرى تمريضه وأشرف عليه بعض السجناء خاصة من زوبع، لكن عند الفجر أسلم الروح، وهكذا انقضت حياة واحد من أبرز ثوار العراق في الأول من شباط عام 1928.

ما كاد يعلن الحكم ويصل إلى أسماع الناس حتى هاجوا وتجمع الكثيرون منهم عند مكان المحاكمة ثم بالقرب من السجن. أما عندما أُعلن عن وفاة ضاري في اليوم التالي فقد بلغ غضب الجماهير حداً لا يوصف فتجمّع الآلاف وأرادوا انتزاع الجثمان، لكن قوى السلطة حالت بينهم وبين ذلك، بحجة تشريح الجثة ومعرفة أسباب الوفاة! وأن السلطة ستلجأ إلى نقل الجثمان لمقبرة الشيخ معروف. وبعد أخذٍ وردٍّ، ومفاوضات شاقة، أمكن الوصول إلى اتفاق يحفظ الأمن والنظام أثناء التشييع.

كانت جنازة الشيخ ضاري يوماً مشهوداً في تاريخ العراق الحديث، نظراً لضخامة عدد المشيعين، والحزن الذي خيّم على الجميع، والأهازيج المليئة بالتحدي في مواجهة سلطات الاحتلال والدمى التي نصّبوها. مرت الجنازة في أحياء عديدة، وعبرت النهر إلى صوب الكرخ، وصدف أن كان المندوب السامي متجهاً إلى دار الاعتماد حين كانت الجنازة تجتاز الجسر، فاضطر هذا الأخير إلى أن يقفل راجعاً.

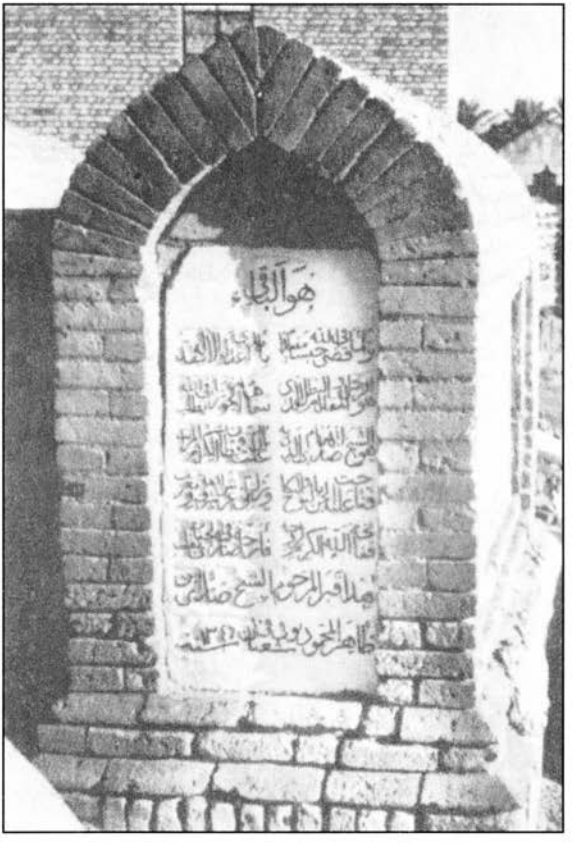

قبر الشيخ ضاري

بعد ثلاث ساعات، وهي المدة التي استغرقتها الجنازة إلى أن وصلت إلى المقبرة، ظلت الجماهير محتشدة ما يزيد على ساعتين إضافيتين لكي تنتهي المراسم. أما مَن أنزل الجثمان إلى القبر فقد كان تلاميذ المدارس، صغار السن، الذين أصروا على ذلك، واستجاب لهم الكبار، وكانت الدموع تنحدر على الوجوه وهلاهل النساء تملأ الفضاء، وكانت الأهزوجة التي تتردد كالرعد هي:

عاينوله للكاتل لجمن
هز لندن ضاري وبكاها
منصورة يا ثورة ضاري
ساعة ومضمومة يا لندن
الدنيا غدارة يا ابن العم
نام هنيه يا كاتل لجمن
يا شيخ اتهنه بها النومة

وهكذا انتهت إحدى الصفحات المضيئة في تارخ العراق الحديث، وهناك مثلها الكثير، لكنها وحدها تتصدر الآن، خاصة بعد الدم الغزير الذي نزف في الفلوجة أثناء مقاومة المحتلين الجدد، وقالت لهم الضحايا بالفم الملآن إن دماء ضاري لا تزال تتواصل في عروق أبناء العراق، وإن الشعب الذي هزم المحتلين الإنكليز سوف يهزم المحتلين الأميركان، وما أشبه الليلة بالبارحة!

مكتبة
t.me/t_pdf

مس بيلْ* «الخاتون»

المرأة التي أنشأت دولة ونصّبت ملكاً(*)

مس بيلْ: شخصية لعبت دوراً محورياً في سياسة إنكلترا في العراق

(*) أُعدّت هذه المقالة كمقدّمة لكتاب: جيرترود بل، من أوراقها الشخصية، تأليف: إليزابث بيرغوني، وترجمة نمير عباس مظفر، وصدر عام 2002 عن المؤسسة العربية للدراسات والنشر.

مع مطلع القرن العشرين، أصبح واضحاً أن الامبراطورية العثمانية لم تعد قادرة على البقاء طويلاً، فقد أنهكها الضعف، وعمّ فيها الفساد، وتفجّرت داخلها المشاكل التي طالما حاولت إبعادها أو تأجيلها، وازداد تربص الطامعين والخصوم بها، يطوقونها من كل جانب ويحكمون عليها الحصار، لكي يرثوها ويتقاسموا تركتها، خاصة بعد أن تم الاتفاق بين هؤلاء على المناطق والنِّسب.

الأقاليم العربية، والتي هي جزء من الامبراطورية العثمانية، كانت أيضاً في حالة مخاض أقرب إلى الغليان، فهي تحاول انتزاع استقلالها وحريتها من الامبراطورية العجوز، وتحاول في الوقت نفسه ألا تستقر، أو بالأحرى أن تكسب تأييد الدول الأوروبية، لكن هذه الدول التي تتظاهر بالدعم والتأييد كانت لها نوايا مختلفة، إذ بالإضافة إلى كونها دولاً استعمارية لا تخفى، فإنها لم تهمل الأقطار العربية ولم تتركها، بل كانت لها بالمرصاد، وتنتظر اللحظة المناسبة للانقضاض عليها. ومن أجل ذلك استعدت مبكراً واتفقت فيما بنيها على كيفية تقاسم تركة الامبراطورية، وقد أوفدت لهذه الغاية أعداداً كبيرة من رجالها وعيونها تحت تسميات متعددة إلى أقاليم الامبراطورية، خاصة الأقطار العربية، تجوسها وتدرس أوضاعها

تمهيداً لاختيار أفضل الطرق والوسائل من أجل وضع اليد عليها، والسيطرة على خيراتها، وإخضاع شعوبها.

من جملة الذين أُوفدوا لهذه الغاية ومنذ وقت مبكر: المبشرون والباحثون عن الآثار، والدارسون للغات الشرقية، والمهتمون بالقبائل والعشائر والعلاقات الاجتماعية والأقليات. وكان عدد غير قليل من هؤلاء الموفدين مرتبطين بدوائر المخابرات ويعملون بتوجيهها.

ضمن الذين أُوفدوا إلى المنطقة العربية في بداية القرن العشرين، وكلّفوا بمهمات ونشاطات تركت بصمات واضحة استمرت آثارها لفترة طويلة: لورنس وفيلبي والمس بيل.

وإذا كان لورنس قد نال الشهرة الأوسع بين الثلاثة، ونُسبت إليه الأهمية الأكبر، وكُتِب الكثير عن شخصه ودوره، وعن نشاطه العسكري في اقتحام المواقع ونسف الجسور والسكك الحديد أثناء الحرب العالمية الأولى، مما عجّل في سرعة انحسار نفوذ الامبراطورية العثمانية عن بلدان المشرق العربي، خاصة وأن الأعمال ترافقت مع وعود وعهود قدّمها لورنس باسم الامبراطورية البريطانية باستقلال البلدان العربية ووحدة أراضيها حالما تنتهي الحرب بانتصار الحلفاء. ما عزز صورة لورنس أكثر: الحياة الرومانسية التي عاشها، وما تخللها من مغامرات واعتقال وهروب، ثم تلك العزلة التي لجأ إليها في أعقاب الحرب، بما في ذلك تغيير اسمه وشخصيته، وأخيراً النهاية الفاجعة التي انتهى إليها. لقد صوّر كل ذلك في مجموعة من الأفلام والكتب التي صدرت عنه، وجعلت منه الأكثر شهرة، بحيث

تركّزت عليه وحده الأضواء، وعزيت إليه المآثر والخوارق في الوقت الذي غُيِّبت فيه أو اختُصرت أدوار الآخرين.

صحيح أن فيلبي لا يعتبر مغبوناً من حيث المعرفة والشهرة قياساً إلى لورنس، إذ عاش فترة طويلة، وكتب في حقول شتى، كما لعب أدواراً بالغة الأهمية، وإن ظل أكثرها طي الخفاء، خاصة في بلدان الجزيرة العربية، ومع ذلك بقي أقل بريقاً من لورنس، واقتصرت المعرفة به على أوساط دون غيرها.

الأقل شهرة بين الثلاثة، ولا تكاد تُعرف خارج العراق، وفقط ضمن أوساط محدودة وضيقة، هي جيرترووود بيل، أو مس بيل، حسب التسمية الأكثر تداولاً، أو الخاتون كما كان يطلق عليها عامة الناس.

تُعتبر المس بيل شخصية فذة ودورها بالغ الأهمية، إن لم يكن حاسماً، في الصيغة التي أخذتها المنطقة في أعقاب الحرب العالمية الأولى من حيث العلاقة مع بريطانيا، ومن حيث نوعية الحكم الذي قام في العراق.

بدأت علاقة المس بيل بالمنطقة مع بداية القرن العشرين تقريباً، وقد تزاملت ولورنس في البحث عن الآثار، وكانت البداية في كركميش، عند مدخل نهر الفرات إلى سورية، وظل الاثنان معاً فترة من الزمن، ثم افترقا كل إلى مكان وكل لمهمة، إذ أخذت المس بيل تجوب المنطقة من أقصاها إلى أقصاها بحجة البحث عن الآثار مرة، وبحجة دراسة لهجات البدو مرة، وبحجة الإلمام بأصول القبائل وبأنسابها ثالثة، إلى أن وصلت إلى أعماق الجزيرة العربية في محاولة لاستمالة عدد من شيوخ البدو إلى جانب الحكومة البريطانية وتعبئة

عواطف العرب ضد الأتراك، الأمر الذي أدى إلى احتجازها في حائل من قبل ابن رشيد الذي كان موالياً للأتراك، إلى أن تمّ الإفراج عنها وترحيلها من الجزيرة العربية. أما لورنس فقد اختص بالهاشميين ووثق العلاقة معهم حتى نهاية الحرب.

مغامرات خطرة ومتعددة اندفعت إليها مس بيل، وقد دفعت ثمناً لقاء ذلك، فهي لم تهدأ ولم تتوقف عن التجوال والإقامة لفترات غير قصيرة في بلدان المنطقة، مما ساعدها على زيادة إتقانها للغة العربية، وإلى التعرف على كثيرين ممن يعملون في الحقل العام، إضافة إلى الإلمام أكثر بتفاصيل المنطقة ومشاكلها، إلى أن انتدبت للعمل في العراق أثناء الحرب العالمية الأولى، وكان من حسن حظها أن تعمل مع واحد من أبرز صانعي خرائط المنطقة: السير بيرسي كوكس.

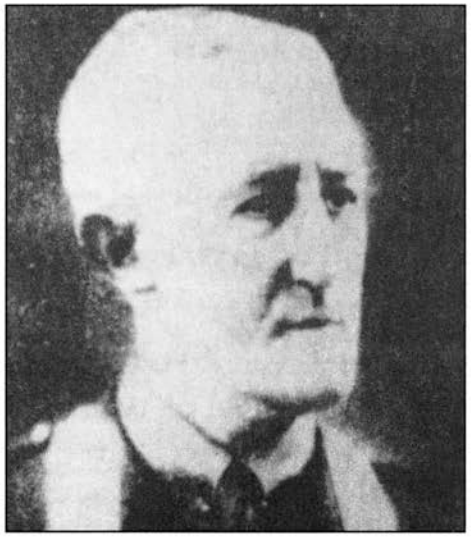

السير بيرسي كوكس

من خلال وجودها في العراق، وبحكم ما تملك من معرفة وإمكانيات ومواهب، ونظراً للموقع الذي احتلته، بدأت رحلتها الكبرى، وبدأت في صناعة الممالك وتنصيب الملوك واختيار الوزراء وتقسيم النفوذ والأرزاق، بحيث لم تمر فترة إلاّ وأصبحت «الخاتون» التي تضفي على الأشخاص والأشياء شكلها وأهميتها، وأصبح التقرب إليها وكسب ثقتها ورضاها هدفاً لكثيرين من الساسة والمتطلعين إلى المناصب والنفوذ، أما من يعاديها أو يختلف معها، حتى لو كان من أبناء جلدتها والعاملين معها في الإدارة، فإن مصيره النفي أو النقل، إن لم يكن أكثر من ذلك!

من جملة الذين تعرّضوا لانتقامها، بعد أن وقفوا في وجهها: طالب النقيب ثم فيلبي. فالسيد طالب، زعيم البصرة دون منازع، والذي كان طامحاً لاحتلال عرش العراق، باعتباره واحداً من أبناء البلاد، وكان حظه في الوصول إلى العرش لا يقل عن فيصل بن الحسين، لما يتمتع به من قوة وعلاقات تأييد، إضافة إلى دعم بعض رجال الإدارة الإنكليزية من العاملين في إدارة الانتداب، لم يلبث هذا السياسي الطموح، بعد أن عبّر عن نواياه وهيأ نفسه بحكم الاتصالات التي كان يجريها بهدف تسلم العرش، أن تعرّض لغضب المس بيل، خاصة وأن الأخيرة أخذت تميل إلى تزكية فيصل، وتحاول إبعاد أو إضعاف المرشحين الآخرين. ورغم أن طالب النقيب كان يشغل مركزاً حكومياً رفيعاً في الحكومة الانتقالية التي كان يرأسها عبد الرحمن النقيب، إلاّ أن غضب الخاتون عليه أدى إلى تجريده من منصبه أولاً، ثم إلى نفيه بعد ذلك إلى الهند، وظل في المنفى بضع سنين، جرى خلالها تنصيب فيصل ملكاً على

العراق، وإقامة صيغة جديدة للحكم، بحيث أصبحت الدنيا حين عاد طالب من المنفى، بعد أن سُمح له بذلك، مختلفة تماماً عما تركها، وهكذا طواه النسيان وانتهى دون أن يخلف أثراً. لقد حصل كل ذلك لأن المس بيل أرادت له هذا المصير!

أما المستر فيلبي الذي كان أحد صانعي السياسة البريطانية في المنطقة العربية، خاصة في العراق، وقد شغل مناصب عديدة في إدارة الانتداب، بما فيها مستشار وزارة الداخلية، وكان بمثابة الوزير الفعلي، وكانت له حظوظ كبيرة في الارتقاء وتبوّؤ مناصب أكبر، إلاّ أن خلافه مع المس بيل، خاصة فيمن يجب أن يُنصَّب على عرش العراق، إذ كان فيلبي ميالاً إلى طالب النقيب وغير مقتنع بفيصل الأول. أدى هذا الاجتهاد ثم الخلاف بين الاثنين، إلى تبنّي الإدارة، المندوب السامي في العراق أولاً، ثم مؤتمر القاهرة الذي انعقد لدراسة هذه القضية وقضايا المنطقة الأخرى، وأخيراً لندن، أدى ذلك إلى إقرار موقف المس بيل، في أن يُنصَّب فيصل ملكاً، مما أغضب فيلبي ثم أدى إلى اعتكافه، الأمر الذي حمل الإدارة على نقله إلى مكان آخر وتكليفه بمهمات أخرى.

وبريطانيا التي كانت تتطلع منذ وقت مبكر لأن تضع يدها على العراق، نظراً لأهميته، ولأنه محطة رئيسية في الطريق إلى الهند، ما كادت تنتصر في الحرب، وتفرض سيطرتها على هذا البلد حتى واجهتها مجموعة من المشاكل والثورات، جعلت موقفها دقيقاً وصعباً، إذ لم يهدأ الداخل، ولم يقر لها منافسوها بما كانت تطالب به أو تريده، وهكذا اندلعت الثورات الواحدة بعد الأخرى، فما كادت ثورة النجف تنتهي حتى انفجرت ثورة العشرين، وما كادت

ثورات العشائر العربية تهدأ أو تتوقف في وسط العراق وجنوبه حتى هبّت حركات التمرد والعصيان في الشمال. وما إن توصلت إلى صيغة أولية لنظام الانتداب، وشرعت في إقامة الإدارة، حتى قوبلت برفض واسع، الأمر الذي اضطرها إلى إعادة النظر والتفكير في صيغة أكثر قبولاً وثباتاً، وكان أن توصلت إلى اعتبار النظام الملكي هو الصيغة الملائمة، لأنها صيغة تساعد على الاستقرار!

توصلت بريطانيا إلى هذه القناعة في الوقت الذي عزلت فيه فرنسا فيصل بن الشريف حسين عن عرش سورية واضطرته إلى المغادرة، مستغلة بقاء لواء الموصل موضوعاً للمساومة، لأن هذا اللواء بقي موضع تجاذب بين تركيا التي تطالب به، وبين بريطانيا التي تريد إلحاقه بالعراق كي تتمكن من السيطرة على ثروته النفطية، وبين فرنسا التي تعتبره جزءاً من سورية اعتماداً على اتفاقيات سايكس ـ بيكو التي عقدت خلال الحرب.

في ظل أجواء بهذا التعقيد والتداخل قُدِّر لاثنين أن يلعبا دوراً حاسماً في تقرير مصير العراق، من حيث ضبط أوضاعه ورسم حدوده وتحديد نوعية وشكل الحكم الذي يجب أن يقوم فيه. كان هذان الاثنان هما السير بيرسي كوكس وجيرترود بيل.

صحيح أن الحاكم الفعلي، وهو المندوب السامي بيرسي كوكس، صاحب التجربة الطويلة في المنطقة، والذي يتمتع بصفات مميّزة إدارياً وسياسياً، إلاّ أن وجود الخاتون، المس بيل، إلى جانبه كان ضرورياً، وإليها يعود الفضل الكبير في ترتيب الكثير من الأمور، إذ بالإضافة إلى معرفتها باللغة العربية وبأنساب القبائل وطبيعة العلاقات التي تربط أو تباعد بين الشيوخ والمناطق، فقد

كانت تملك قدرة فائقة على العمل، وعلى إقامة العلاقات، وحلّ المشاكل والمنازعات، وترتيب الأمور التي يصعب على غيرها القيام بها.

ومن المفيد أن نتوقف هنا عند موضوع تنصيب فيصل بن الحسين ملكاً على العراق، نظراً لأهمية الموضوع أولاً، ولأنه يمثّل نموذجاً لقابليات هذه المرأة، ثانياً.

حين بدا واضحاً أن الاتجاه الغالب يميل إلى اختيار النظام الملكي للعراق، كان هناك عدد كبير من المرشحين لتسلّم العرش، وكان لكل واحد من هؤلاء المرشحين منطقته ومؤيدوه والمتحمسون له، وكان له أيضاً من يؤيده، أو يتظاهر بذلك، من رجال الانتداب، وكأن المسألة مسابقة لإشغال منصب يعتقد كل من المرشحين أنه أهل له!

من هؤلاء المرشحين: عبد الرحمن النقيب، أبرز رجال بغداد ونقيب أشرافها، وقد اعتمد عليه الانتداب في تشكيل أول حكومة بعد الحرب، وكان موضع ثقة المندوب السامي والإدارة البريطانية. ولولا تقدمه في العمر وثقل حركته ومرضه لكان حظه في الوصول إلى العرش كبيراً.

أما طالب النقيب فكان أبرز زعماء البصرة وأكثرهم نفوذاً وحركة، ولولا تسلطه وغروره، وميله إلى الفرض والعناد، لاستطاع أن يقيم علاقات ودية مع إدارة الانتداب، لكن هذه العلاقات كانت دوماً عرضةً للتأرجح والخطر، مما أدى إلى عدم الثقة به وإلى استمرار الخشية منه.

وكان ضمن المرشحين للعرش أيضاً: هادي باشا العمري، أحد

زعماء مدينة الموصل، ثم حاكم إمارة المحمرة، الشيخ خزعل، وحاكم نجد عبد العزيز ابن سعود، ووالي بشت كومه الإيراني، كما رشح أيضاً الآغا خان لعرش العراق، وأضيف إلى المرشحين فيصل بن الحسين الذي عزل عن عرش سورية وأخذ يبحث عن عرش بديل، وكان المستر تشرشل يميل إلى فيصل أكثر من أي مرشح آخر لأن «تنصيب فيصل على عرش العراق سيزيد من سيطرة الحكومة البريطانية عليه وعلى أبيه شريف مكة»(*).

وهكذا، وما إن انعقد مؤتمر القاهرة، والذي تقرر فيه تبنّي فيصل كي يكون ملكاً، حتى اندفعت المس بيل إلى تنفيذ هذا القرار الذي لاقى هوى كبيراً في نفسها، باعتبارها أكثر المتحمسين لفيصل، وأول مرشح لهذه المهمة.

وكما أشرنا تواً، كان المتحمسون والمرشحون للعرش كُثُر، وكانت الفروق بين واحد وآخر قليلة، وهنا ظهرت قوة المس بيل ومكرها، في إسقاط المرشحين المنافسين لفيصل الواحد بعد الآخر. لجأت إلى المداهنة والإقناع مما حمل أكثر المرشحين حظاً، عبد الرحمن النقيب، على الانسحاب. ولجأت إلى القوة والحزم في إبعاد ثم نفي طالب النقيب، الذي يشكّل خطورة حقيقية على فيصل سواء انتخب ملكاً أو بقي في العراق، لما له من تأثير وعلاقات. كما لجأت المس بيل إلى شيوخ العشائر وإلى رجال الدين، واستعانت بزعماء المدن والأحياء من أجل تنظيم حملة لتنصيب فيصل ملكاً للعراق، وهكذا استطاعت بكثير من الحركة والجهد

(*) عبد الرحمن البزاز، **العراق من الاحتلال إلى الاستقلال**، بغداد، 1967.

والتنظيم أن تجعل فيصلاً الأوفر حظاً لتولّي العرش، مستغلة البيت الذي ينتسب إليه، والصفة التي كانت له، والتأييد الذي حصل عليه نتيجة التحريض والتعبئة، بما في ذلك الصحافة التي أنشئت من أجل الدعاية له وإقناع الرأي العام بجدارته.

إن الجهد الذي بذلته المس بيل، والذي تناول أدق التفاصيل، منذ لحظة وصول فيصل إلى البصرة، ثم مروره أو توقفه في بعض المحطات، وزياراته للأماكن المقدسة، وفي أوقات معيّنة، وأيضاً ما يجب أن يقوله للناس وما يقدمه من وعود، وحتى الملابس التي يحسن ارتداؤها، واختيار الأشخاص الذين يفترض أن يرافقوه ويحيطوا به، والآخرين الذين يفترض أن يتعاون معهم في إدارة البلاد، وكان في مقدمتهم جعفر العسكري ونوري السعيد... إن هذه التفاصيل التي أشرفت عليها المس بيل بنفسها، والقوى التي حشدتها من أجل ذلك، جعلت اختيار فيصل ملكاً تحصيلاً حاصلاً، كما يقال، إذ أصبح في نهاية المطاف المرشح الوحيد للعرض، بعد أن استُبعِدَ الآخرون بأشكال شتى، وأصبح الاستفتاء الذي تمّت الدعوة إليه إقراراً بالأمر الواقع، وتثبيتاً لحقيقة أمست لا تحتاج سوى إلى بعض الشكليات كي تكتمل.

هناك مقدار كبير من «الحقائق» الصغيرة التي تشير إليها المس بيل من أجل إنجاز هذه المهمة، مهمة اختيار النظام الملكي للعراق، وفي فترة مليئة بالاضطرابات والصراع، وكان من الممكن أن تطيح بها أو تغيرها، لولا قوة هذه المرأة وإصرارها، وأيضاً قدرتها على تكييف الأمور لتحقيق هذه الغاية، والمرونة التي كانت تتمتع بها من أجل تطويع أقوى الرجال وأكثرهم عناداً وصلابة.

إن اختيار رجل مثل فيصل لعرش العراق أمر بالغ الصعوبة، إن لم يكن مستحيلاً، لولا المس بيل. فهذا الرجل الذي لم تمضِ سوى شهور على هزيمته في سورية من قبل الفرنسيين، والذي يتصف بروح رومانسية من حيث النظرة والعلاقات، والتصرفات أيضاً، وكان موضع منافسة من بعض أفراد أسرته وخصومه، وكان غريباً عن هذا البلد، إذ لم يره من قبل، ولا يعرف إلاّ القليلين من رجاله، فقط أولئك الذين التحقوا بالثورة العربية حين أعلنها والده الشريف حسين عام 1916، ورافق بعضهم فيصلاً في مسيرته نحو دمشق، وأصبحوا جزءاً من العناصر التي يعتمد عليها في إدارة السياسة والحرب حين تولى حكم سورية، ثم حين واجه الفرنسيين، ولما هُزِم عاد أغلب هؤلاء إلى الأماكن التي انطلقوا منها، أو هاموا على وجوههم باحثين عن مكان أو صيغة حياة جديدة.

إن أوضاعاً مثل هذه ورجالاً كهؤلاء كانوا بحاجة إلى قوة استثنائية لكي تعيد تنظيم أوضاعهم وأدوارهم، وما كان هذا الشيء ليحصل، ووفق هذا النسق لولا المس بيل.

لم يقتصر الأمر على ذلك، إذ ما كادت تبرز المصاعب والتحديات، حين بدأت إقامة المؤسسات واختيار الرجال لإدارتها، وما كاد ينشأ الجيش وما يقتضيه من رجال وأسلحة وأموال، وما إن ظهر عجز الموازنة وتزايد هذا العجز سنة بعد أخرى، وما إن بدأت التمردات، خاصة في الشمال، وإعلان عدد من المتنفذين عصيانهم على الحكومة المركزية، حتى بدأ يظهر ضعف فيصل وتردده، بل ميله إلى اعتزال السلطة والتخلي عن هذه المهمة الصعبة، لولا المس بيل وعدد من الرجال الذين اندفعوا للمساعدة وتحمُّل الجزء

الأكبر من الأعباء، مما أدى إلى تماسك فيصل من جديد ومتابعة المسيرة.

ومن أجل إسناده والوقوف بقوة إلى جانبه، أخذت المس بيل تتولى الكثير من الأمور اليومية والخاصة، بما في ذلك العناية بالصحة والأسرة والإشراف على الزوجة والأولاد في اختيار المربيات والملابس، وفي تعليم اللغات، وغير ذلك الكثير من الشؤون، بحيث لم يعد من الممكن الاستغناء عنها أو الاعتماد على غيرها. وكان فيصل الأول يلجأ إليها في الصغيرة والكبيرة، إلى أن وصل الأمر إلى حد الالتباس في العلاقة، وتشير المس بيل ذاتها إلى عدد من الحالات حين كان فيصل الأول يستدعيها في مزرعته الخاصة في خانقين ليناقش معها بعض الأمور، أو لكي يفضي إليها بمكنونات عقله وقلبه!

أما الرجال الأساسيون في بناء الدولة وإدارتها، فكانت علاقة المس بيل بأغلبهم وثيقة، وكانوا يسترشدون برأيها ويتشاورون معها في معظم القضايا، أما أولئك الذين اختلفوا معها أو لم يمتثلوا لتوجيهاتها فقد انتهى بهم الأمر إلى القطيعة والإبعاد، وإن حاول فيصل الأول، بعد أن تمرس بالحكم، أن يبقيهم في الظل فترة من الزمن ثم يستعيدهم مرة أخرى!

وما يقال عن إنشاء الدولة العراقية واختيار نظام الحكم، يمكن أن يقال أكثر منه عن إنشاء المؤسسات والإدارات، وقد ساهمت المس بيل، مع رجالها الأقربين، في إقامة الكثير منها، وارتبط بعضها باسمها حتى بعد أن لم تعد موجودة، ولعل إنشاء المتحف العراقي وزيادة عمليات التنقيب عن الآثار، من جملة ما أولته عناية

خاصة، وربما بدافع الحنين إلى العمل الأول الذي بدأت به علاقتها بالمنطقة!

حتى الطقس القاسي في العراق خلال فصل الصيف، والذي يضيق به ساكنوه من أبنائه، ويهرب منه الأجانب استطاعت المس بيل احتماله والتكيف معه. وقد صدف أن مرّت أصياف عديدة غادر خلالها معظم الأجانب، خاصة من الإنكليز، البلاد في الوقت الذي بقيت فيه راضية وغير مرغمة، وتعودت ثم ألفت هذا الجو، بحيث اعتبرت العراق موطناً ثانياً لها.

حتى فيصل كان يقضي إجازاته الصيفية في شمال البلاد أو يسافر إلى أوروبا، هرباً من الحرارة الشديدة في بغداد، فيما اعتبرت المس بيل الحصول على مراوح كهربائية هبة لا تقدر لمواجهة هذا الجو، ولا تفضل مكاناً آخر على بغداد، وإذا حاولت أن تمنح نفسها بعض الامتيازات تتبرد في مياه دجلة أو تذهب بإجازة قصيرة إلى إيران، وخلال الإجازة تشتغل في جمع المعلومات واكتشاف بعض المناطق! وتمارس هواية صيد الطيور والحيوانات، وحين تتعب من كل ذلك تعود لممارسة هوايتها الأولى: البحث عن الآثار.

هكذا كانت المس بيل خلال إقامتها في العراق، أما في أوقات الفراغ فكانت تزور مناطق العراق المختلفة، وتدوّن المعلومات والملاحظات، وتقيم الصلات مع المتنفذين ووجهاء المناطق، وتبعث إليهم بعد فترة بالأعطيات والهدايا لتأكيد روابط الصداقة وتمتينها، ولكي تطلب منهم المساعدة أو أداء بعض الخدمات في وقت لاحق.

ربما لم تتناول عشاءها بمفردها إلاّ مرّات نادرة، فقد كانت

دائماً داعية أو مدعوة، ومع عدد مختار ومحدود من الأصدقاء، وفي مثل هذه الليالي كان يجري الكثير من البوح وكشف الأسرار واستعمال لغة خاصة في الخطاب، ومن جملة ما تشير إليه في إحدى رسائلها أن نوري السعيد، الذي كان يزورها كثيراً، كان يحب شرب الخمر وأن تكون له علاقات نسائية واسعة!

هذا غيض من فيض، كما يقال، عن عالم المس بيل، فالذي أشير إليه هو جزء مما دوّنته في رسائلها إلى أبيها وإلى زوجة أبيها، ثم إلى بعض الأصدقاء، وهذا ما يستدعي التوقف طويلاً عند السِّفر الكبير والهام، والذي يضم قسماً غير قليل من الرسائل التي بعثت بها إلى أبيها، وكانت بمثابة مرآة لحياتها ولأدق التفاصيل المتعلقة بقيام هذه الدولة، وما رافق قيامها من صراع وملابسات وأدوار.

قبل الإشارة، إلى ما بذله الأستاذ نمير مظفر من جهد ممتاز ليس فقط في ترجمة هذا النص الذي يجب أن يكون موجوداً كمرجع في العربية، وإنما في الحواشي والمعلومات الإضافية التي استخرج الكثير منها من بطون الكتب أو استقاها من الأقرباء والأصدقاء الذين مرّ ذكرهم في الرسائل ثم في الكتاب.

قبل الإشارة لا بدَّ من التوقف وتأمل الطريقة التي اعتمدتها المس بيل في التعبير عما تريد قوله، إذ رغم مقدرتها التحليلية في الكتابة، وقد أثبتت ذلك في غير هذا السفر، حين كتبت عن القبائل وعن الآثار، وفي التقارير العديدة المنسوبة إليها، إلاَّ أن اعتماد الرسائل هنا كوسيلة للتعبير يضفي عليها صفة حميمية، ويجعلها أقرب إلى النفس، كما أن لها صفة الخصوصية التي تجعلها بوحاً أو أقرب إلى البوح والأسرار، خاصة وأنها موجهة إلى أقرب الناس

إليها، وهم موضع أسرارها والذين يمكن أن يؤتمنوا على أدق القضايا وأكثرها خفاء، وربما خطورة، مما يحولها، في النهاية، إلى وثائق بالغة الأهمية.

لم تلجأ المس بيل في هذه الرسائل إلى الكتابة التاريخية، أي إلى التحليل وإيراد المستندات والوثائق، كما لم تلجأ إلى كتابة الذكريات في وقت متأخر، أي بعد انقضاء الأحداث وظهور النتائج، ولم تلجأ أيضاً إلى استعادة ما وقع لكي تظهر مقدار ما تتمتع به من الحكمة وبُعد النظر.

لقد لجأت إلى كتابة الرسائل إلى ذويها، وإلى أصدقاء تعرف مدى اطلاعهم وتدقيقهم، وتالياً إمكانية تساؤلهم ومحاسبتهم، مما يجعلها موضوعية وذاتية في آن واحد، فهي تورد المعلومات والوقائع أولاً ثم تعلق عليها، وكلا الأمرين يحتاج إلى دقة من ناحية، وإلى جرأة من ناحية ثانية، أي أنها لا تخشى من إيراد الوقائع، ولا تخشى من إبداء الرأي فيها، كل ذلك في وقته وبكل ما يحيط به من ملابسات.

هذا النوع من الكتابة شديد الخصوصية، ولا يخلو من مكر أيضاً، فالكاتب يتناول قضايا عامة بالغة الحساسية، ويعرف أن لهذه القضايا انعكاسات كثيرة مباشرة وتاريخية، لكن باعتبار أنها لن تنشر سريعاً، أغلب الأحيان، ولأنها وصلت إلى أيد يفترض تقديرها لمدى الدقة والأهمية، فلا بدَّ أن يتاح لها رؤية النور ذات يوم، وأن تعيد رسم المشاهد والوقائع بحيث تبرز الحقيقة، وينال كل إنسان ما يستحقه، من وجهة نظر صاحب العلاقة.

إن هذا السِّفر يحوي قسماً غير قليل من الأوراق الشخصية

لجيرترود بيل، ويتناول الفترة من 1914، تاريخ وصولها إلى العراق، إلى 1926، تاريخ وفاتها في بغداد. وإذا كانت إليزابيت بورغوين قد تكلفت الكثير من الجهد في ترتيب هذه الأوراق ووضعها في إطار يساعد القارئ الأجنبي، الإنكليزي بشكل خاص، على التعامل معها واستعادة وجهاً من أبرز وجوه الاستعمار البريطاني، فإن من حق القارئ العربي أن يتعامل مع هذه الأوراق بطريقة مختلفة، وأن يعيد ترتيبها ضمن رؤية تاريخية مغايرة، لأن كثيرين من بقايا العاملين في الحقل العام عاصروا أو عاشوا بعد المس بيل، ثم الأجيال التي تلتهم، يتذكرون، ربما بشكل مشوش، الكثير من الوقائع والأسماء، بحيث إن القراءة المدققة تستطيع أن تعيد المشاهد والوقائع لا وفقاً لما تشتهي أو ترغب، وليس امتثالاً لإرادة المس بيل أو الزاوية التي رأت بها الأحداث، وإنما اعتماداً على المقارنة والوقائع والحقائق التي أتيحت من مصادر أخرى متعددة.

ولا بد من كلمة أخيرة: إن كمّ المعلومات المتوفرة عن المس بيل، أو الخاتون، وفي هذا المصدر أو مصادر أخرى، تحرض العاملين في السينما والمسرح والتلفزيون على التعامل مع هذه الشخصية، ويمكن من خلال إعادة «قراءتها» أن نستعيد مرحلة تاريخية كاملة، وأن ندرك بوضوح أكبر كيف تنشأ الدول وكيف تُقام الممالك، وكيف يُنصّب الملوك... وأخيراً كيف يعزلون.

ومرة أخرى شكراً لنمير مظفر الذي أتاح لنا هذه الفسحة من المتعة والرؤية والفائدة.

فيصل الأول
وسياسة «خذ وطالب»

الملك فيصل الأول

مضى على تأسيس الدولة العراقية، في العصر الحديث، اثنان وثمانون عاماً، وها نحن الآن نشهد التأسيس الثاني لهذه الدولة.

كان التأسيس الأول بإشراف الإنكليز، وكانت المس بيل المهندسة المكلفة بهذه المهمة. أما التأسيس الثاني، الجديد، فإن الأميركيين هم المخططون والمصممون والمشرفون، والمهندس المكلف بهذه المهمة، الآن، والذي جاء في البداية هو جي غارنر ثم بعد فشله عُيِّن بعده بريمر.

في عام 1921 كانت المباحثات، من أجل إقامة الدولة، تجري بين فيصل بن الحسين، ومعه كوكبة من الذين شاركوا في ثورة العشرين، وكان غبار المعارك لا يزال عالقاً بعباءاتهم وجفونهم، والآمال تداعب رؤوسهم أنهم أصبحوا على وشك تحقيق ما حلموا به وانتظروه. والطرف الثاني في المفاوضات مجموعة من القادة العسكريين والسياسيين البريطانيين الذين عرفوا المنطقة وناسها، وخدموا فيها طوال سنين، في السلم والحرب، وقد جاء الوقت الآن من أجل إقامة دولة ونظام حكم يلائم طبيعة المرحلة، وبواجهة وطنية.

أما مفاوضات العام 2003، والتي يقوم بها الأميركيون، فإنها

تجري أولاً بين الأميركيين أنفسهم، وثانياً من أجل أهداف متحركة ومتغيرة باستمرار. أي أن المفاوضات لا تجري بين طرفين محدَّدين وواضحين منذ البداية، وإنما يُجري الأميركيون مفاوضات مع أميركيين آخرين، أي مع أنفسهم أو مع ظلالهم، وبهدف الوصول إلى وضع اليد على هذا البلد، العراق، واستغلاله إلى أقصى حد ممكن، وإلى أطول فترة مستطاعة، والتبرير المنطقي والأخلاقي الذي يتم التذرع به الآن: إقامة نظام ديمقراطي! يعتبر منارة للديمقراطية التي يراد إقامتها وتعميمها في المنطقة كلها! صحيح أن مبرر الغزو ثم العدوان الذي اجتاح العراق، كان في البداية نزع أسلحة الدمار الشامل التي كان يمتلكها هذا البلد، ومن أجل ذلك، ومنذ مطلع التسعينات تم الحصار وتكوّنت لجان التفتيش وجرت عمليات البحث والتجسس دون العثور على الأسلحة المزعومة، الأمر الذي جعل الاحتلال هدفاً بحدّ ذاته، ودفع بحوالي مائتي ألف جندي للقيام بهذه المهمة، وهم الآن يحتلون العراق من أقصاه إلى أقصاه. ولا يُعرف إلى متى سيستمر هذا الاحتلال وعمّ سيتمخض.

عبر نظرة سريعة بين التأسيس الأول، والتأسيس الذي يجري الآن، لا بهدف المقارنة الكاملة والدقيقة، وإنما للإشارة فقط إلى طبيعة الاستعمارَين القديم والجديد، ونوعية الرجال والمهمات والتحديات التي تصدّوا لها، وكيف واجه الاستعمار القديم هذه المهمات والتحديات، وكيف يواجه الاستعمار الأميركي، وبعد أكثر من ثمانين سنة على الأول، لعل مثل هذه المقارنة توقظ الحس الوطني وتدفعه إلى المقاومة، وتجعل بالتالي الرحلة الأميركية إلى العراق، والتي بدت سهلة نتيجة أسباب عديدة ومتداخلة، شاقة إن

لم تكن مستحيلة في مراحلها اللاحقة، خاصة وأن هذه الرحلة تتسم بالصلف والفجور، ومثلت أبرز تحدٍّ على مستوى العالم. ومن أبرز مظاهرها، بالإضافة إلى العنف البالغ، أن المباحثات والمفاوضات التي تجريها أميركا الآن إنما تجريها مع الدمى الخزفية التي صنعتها بنفسها، واعتبرت أنها وحدها التي تمثل العراق.

فيصل الذي جاء إلى العراق بعد الهزيمة القاسية التي حلت به في دمشق، وبعد التجارب المريرة التي مرت عليه منذ أن كان قائد جيش الشمال المتجه للاستيلاء على الأردن وسوريا أثناء الحرب العالمية الأولى ثم في أعقابها، رأينا كيف تخلى الإنكليز عن معظم الوعود التي قطعت له ولأبيه، ثم كيف زيدت المصاعب والتحديات التي وضعت في وجهه حين وصل العراق من أجل تسلُّم العرش فيه. هذا عدا عن الحالة التي كان فيها العراق آنذاك، إذ لم تكن قد قامت فيه دولة ذات شخصية واضحة، وكان يفتقر إلى جيش أو قوات نظامية تستطيع أن تدافع عن حدوده وتحمي نظامه، خاصة وأن حدود العراق كانت عرضة للاعتداءات والمطامع، فمشكلة الموصل كانت في أوجها، وهي إحدى المشاكل الكبرى المعلقة بينه وبين تركيا، وزاد في أهمية هذا اللواء كونه خزاناً للنفط. ثم إن العلاقات العراقية- الإيرانية كانت دوماً متوترة وموضع نزاع. والحدود السعودية- العراقية والعلاقات بين الدولتين، كانت سبباً للخلافات والتعديات من قبل السعودية، إضافة إلى النزاع بين الطرفين على الحجاز.

أما التحديات الداخلية في العراق فكثيرة ومتنوعة، إذ كان يفتقر

هذا الحكم الحديث التكوين إلى الكوادر الفنية في شتى النواحي والمجالات، وكان عدد المتعلمين ضئيلاً والمدارس تحسب على أصابع اليد، إضافة إلى تردي الوضع الصحي وانتشار الأوبئة والأمراض، والأرقام الكبيرة لوفيات الأطفال، هذا عدا عن بدائية شبكة الطرق، وتمرُّد بعض المناطق على السلطة المركزية، الإنكليزية أولاً، ثم الوطنية بعد ذلك. وكانت القوانين الموجودة خليطاً من القوانين التركية - العثمانية، ومن الأعراف السائدة، إضافة إلى مجموعة من التنظيمات الهندية، يضاف إلى ذلك عجز القضاء وصعوبة تحصيل الضرائب والرسوم، إلى غير ذلك من الصعوبات، والتي تجعل أية حكومة، مهما بلغت قوتها وكفاءة عناصرها، عاجزة عن المواجهة وتأمين خطة للنهوض.

أمّا الإنكليز الذين واجهوا مشاكل وصعوبات كبيرة من خلال الحكم المباشر، وبعد أن قامت ثورة العشرين كأكبر تحدٍّ، اضطروا إلى تقديم بعض التنازلات، وهذا ما دعاهم إلى مفاوضة فيصل والإتيان به ليحكم العراق، خاصة وأنهم استبقوا أوراقاً قوية في أيديهم، وهذه الأوراق الضاغطة تمكنهم من إرغام أية حكومة على الامتثال لإرادتهم وأوامرهم. وحكومة فيصل التي اعتمدت سياسة «خذ وطالب» كانت مضطرة في عدة مراحل إلى الاستجابة لما يريده الإنكليز، وإن ظلت تحاول تحسين موقعها التفاوضي بين فترة وأخرى، إذ كانت تقف في وجه بعض المطالب الإنكليزية، وتحاول تأجيل البت في بعضها الآخر، أو الالتفاف على بعض ثالث بحجة عدم ملاءمة الوقت، أو ردود الفعل المحتملة من بعض الجهات. هذه الأمور كانت تزعج الإنكليز، وكانت تشعرهم أنهم خُدعوا

عندما جاؤوا بفيصل ملكاً للعراق، وبالتالي لجأوا إلى وسائل الضغط التي يمتلكونها.

لقد كانت إجراءات الحكومة البريطانية، منذ الأيام الأولى لاحتلال العراق، متعارضة مع طموحات السكان وغابنة لهم. ففي إطار الجهاز الإداري الذي يسيّر شؤون الدولة والمواطنين، وحتى أواسط عام 1920، بلغ عدد موظفي الدرجة الأولى في الإدارة المدنية 534 موظفاً، كان من بينهم 507 بريطانيين و 7 هنود و20 من أهل البلاد[1].

أما بالنسبة للتعليم فكان يعاني نقصاً كبيراً في نهاية القرن التاسع عشر وبداية القرن العشرين، إذ لم يزد عدد المدارس الإعدادية على عشر مدارس في جميع أنحاء القطر العراقي[2].

وما يخص الحالة الصحية، فإن الأوبئة والأمراض فتكت بعدد كبير من السكان، خاصة بتأثير مرض الطاعون والكوليرا، إذ هبط عدد سكان بغداد في إحدى المراحل إلى الثلث، وكان يقضي من هذه الأمراض يومياً ما يزيد على الألف[3].

فإذا أضفنا إلى ما سبق أن النقص في الكوادر الفنية لم يقتصر على الإدارة أو التعليم وإنما شمل المرافق الأخرى، مما جعل العراق في حالة يرثى لها عندما نصّب فيصل ملكاً على هذا البلد، ولذلك اضطر أن يبدأ من الصفر تقريباً، وأن يبرع في المساومة من أجل تدبير ما يحتاج إليه من مداخيل، خاصة وأن عليه إنشاء جيش

---

(1) د. عبد المجيد التكريتي، **الملك فيصل الأول**، ص 79.
(2) المصدر نفسه، ص 54.
(3) المصدر نفسه، ص 55.

وطني وتأمين السلاح له وتأمين الاتصال مع الدول الأخرى لكي يكسب تأييدها لدخول عصبة الأمم المتحدة، والوقوف إلى جانب العراق في نزاعه مع تركيا حول الموصل. كما أن النهوض بالدولة والصحة والتعليم، وغيرها من المستلزمات الضرورية تتطلب إدارة حكيمة وحازمة وقادرة على أن تسوس الناس في المدن والأرياف، الحالة التي شكلت همّاً كبيراً للملك الجديد مما أثّر على صحته أولاً ثم ساهم في غيابه المبكر.

بمقدار ما كانت عداوة الإنكليز لفيصل تزداد وتتشعب، لأنه كان حائراً بين تلبية مطالبهم ومطالب الناس، فإن الدول المجاورة لم تكن أقل عداوة ولا تخفي أطماعها، وكانت تستغل نقاط الضعف في الحكم الفيصلي وتحاول أن تستثمرها لحسابها. كما أن الوضع الداخلي، لجهة أعمال التمرد والعصيان والامتناع عن دفع الضرائب، لم يكن يقل عن عداوة بريطانيا ورجالها في العراق، ولا عن عداوة الدول المجاورة.

ولعل من أبرز القضايا التي تشبث بها الإنكليز ورفعوها كسيف مسلط فوق رأس فيصل: مشكلة الموصل، المعاهدة، ثم اتفاقية النفط والمجلس التأسيسي والدستور الدائم، وما يترتب على هذه القضايا من ضرورة إبرام اتفاقيات، واتباع إرشادات الحكومة البريطانية، خاصة في الشؤون الخارجية.

فمشكلة الموصل واجهت العراق منذ بداية تأسيسه. لأن اللواء، حسب الاتفاقات التي سبقت الحرب وتخللتها، كان من حصة فرنسا ويتبع الدولة المنتدبة، سكاناً وثروة وإدارة، لكن صدف أن القوات البريطانية سبقت القوات الفرنسية في احتلال هذا اللواء،

فيصل خلال مؤتمر السلام

وبالتالي إلحاقه بالانتداب الإنكليزي. ونظراً لأن هذا اللواء هو الخزّان الأساسي، وربما الوحيد في ذلك الوقت، الذي يحوي كميات كبيرة من النفط، فقد دب الخلاف بين الدولتين، وبينهما وبين تركيا، التي تعتبر أن الموصل تابع لها لأنه لم يسقط عسكرياً أثناء المعارك، وإنما وضعت بريطانيا يدها عليه.

هذه المشكلة لم تجد حلاً بين الدول الثلاث، مما استوجب استفتاء السكان، وتكوين لجان لاستقصاء طبيعة المنطقة الجغرافية ورغبات مواطني هذا اللواء المتعددي الجذور القومية، من عرب وأكراد وتركمان وآثوريين إلخ... وظلت هذه المشكلة بين أخذٍ وردٍّ منذ نهاية الحرب العالمية الأولى عام 1918 وحتى عام 1925. ولم تتأخر أميركا في دس أنفها في هذا النزاع والمطالبة بحصة من بترول الموصل.

ظل الأمر هكذا إلى أن تم الاتفاق بين الأطراف جميعاً على اقتسام الثروة النفطية، إذ حصلت فرنسا على 23,75% وحصلت أميركا على حصة مماثلة، أما بريطانيا فحصلت على حصة توازي هاتين الحصتين معاً، أما الخمسة بالمائة الباقية فقد تُركت للسمسار الدولي كالبنكيان، وتنازل العراق عن 10% من حصته لتركيا وعلى مدى خمس وعشرين سنة، ثم استبدلت هذه النسبة بمبلغ مقطوع مقداره نصف مليون جنيه استرليني.

بهذه الطريقة سويت مشكلة لواء الموصل، وأُقيمت شركة مشتركة لاستغلال هذا الامتياز، ولكن والمشكلة مطروحة على المحافل الدولية وفي المفاوضات الجارية بين الأطراف، كانت بريطانيا تستغل هذه المشكلة وتتخذها ذريعة للضغط على العراق من أجل ابتزازه، وإجباره على توقيع المعاهدة والتي كانت تغبن الكثير من حقوقه المشروعة. وكان فيصل بشكل خاص يحاول ويراوغ لإلغاء الشروط المجحفة في المعاهدة أو على الأقل التخفيف منها، إلى أن وصل إلى صيغة لم تُرضِ الصحافة والمعارضة، واحتاج تصديقها إلى كثير من الجهد والضغط، حتى انه جيء بمجلس النواب في منتصف الليل، واجتمع على عجل، بعد أن قاطعه عدد غير قليل من النواب، وصادق على المعاهدة المذكورة، والتي أصبحت السبب الأساسي لجميع الهزات والانتفاضات السياسية التي وقعت على مدى ثلاثين عاماً لاحقة.

ومثلما كانت مشكلة الموصل، ثم المعاهدة، سبباً في القلق والرفض اللذين عمّا العراق، فإن اتفاقية النفط لا تقل عن هاتين المشكلتين، وكذلك الحال بالنسبة لانتخاب المجلس التأسيسي ثم

وضع الدستور الدائم.

ولما كان فيصل الأول رقيق الصحة كثير الأمراض، فقد اضطر إلى إجراء عملية بعد تتويجه بسنة واحدة ثم توالت الأمراض عليه بعد ذلك، بحيث كان مضطراً إلى مراجعة الأطباء في أوروبا، خاصة في سويسرا، وكان يرافقه في سفرات العلاج نوري السعيد وطبيبه الإنكليزي سندرسن باشا ورستم حيدر وآخرون. وفي رحلة علاجه قبل الأخيرة وقعت ثورة الآثوريين في غيابه، مما اضطره إلى قطع رحلته والعودة إلى بغداد، وما إن هدأت الأحوال مجدداً وعاود السفر لاستكمال العلاج حتى انفجرت ثورة الآثوريين مرة أخرى، فلجأ غازي إلى قمعها بشدة.

وخلال هذه الفترة، وضمن ملابسات تلفت النظر لتشابكها وغرابتها، وبعد أن التقى فيصل بسيدة هندية قيل إنه كان يحبها، وبعد أن شرب الشاي معها تعرّض لأزمة قلبية أودت بحياته. وقد رفض نوري السعيد تشريح الجثة لمعرفة أسباب الوفاة وحمل الجثمان بسرعة على متن مدمرة ليصل إلى شواطئ فلسطين ثم لينقل إلى العراق ويدفن هناك.

إن شخصية فيصل تسترعي الاهتمام، نظراً للحزن الذي يخيم على هذه الشخصية والكآبة التي تلفّها حين يكون وحيداً أو حين يكون مع الآخرين، وكأن الملك يعيش دوراً لا يستطيع الفكاك منه، أو كأنه خارج من إحدى روايات النصف الأول من القرن التاسع عشر، حيث كان دائم السهوم، لا تزور الابتسامة شفتيه ويظل غارقاً في التفكير والتأمل أغلب الوقت، وكأنه في مواجهة سؤال لم يجد له جواباً طوال حياته!

ورغم أن الكثيرين يصفونه بالبراعة السياسية والقدرة على التفاوض، إلا أن آخرين يرون فيه شخصية رومانسية أقرب إلى الأحلام منه إلى السياسة. وأياً كانت وجهة نظرنا فيه، ومهما اختلفنا معه، فقد استطاع أن يحقق للعراق حضوراً مميزاً على مستوى المنطقة أولاً، ثم على مستوى العالم بعد ذلك.

أما الدمى الخزفية التي حشيت بالقش، وجيء بها من أميركا بعد الإعداد والتدريب، لتكون وجه العراق الجديد وحاملة لواء الديمقراطية، فإنها تبدو عاجزة فقيرة، خالية من أية جاذبية، الأمر الذي أربك حتى صانعيها، بحيث لا يعرفون ماذا يفعلون بها، وإلى متى ستبقى قبل أن تتحطم وتتحول إلى فتات! وحتى ذلك الوقت سنشهد الكثير من العجب.

مشكلة الموصل:
الواقع والمؤمرات

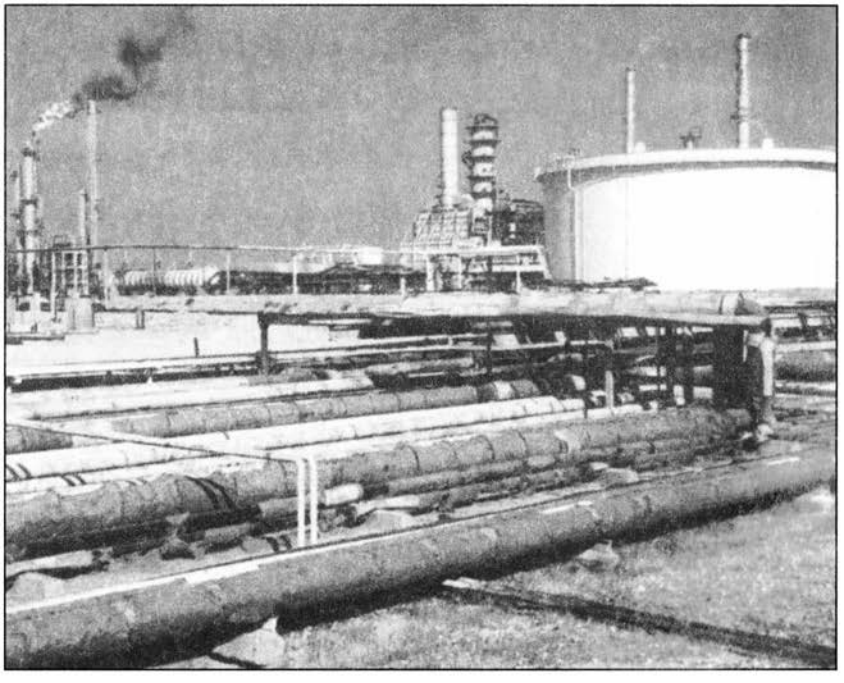

نفط العراق هو الهدف

حين وقعت الهدنة في نهاية الحرب العالمية الاولى بين بريطانيا والدولة العثمانية، في 30 تشرين الأول عام 1918، كانت الجيوش البريطانية على بعد اثني عشر ميلاً من مدينة الموصل، وكانت أجزاء غير قليلة من ولاية الموصل لم يتم احتلالها بعد. وحين سئل الحاكم الإنكليزي في العراق من قِبَل مسؤوليه عن تقديره لرأي السكان، ونوع العلاقة التي يفترض أن تقوم بين الطرفين، أجاب: «إن العرب يعارضون عودة الحكم التركي»[1] وأنه «ليس ثمة عربي يرغب في ضم بلاده إلى بريطانيا العظمى» وأضاف: «يعتبر الجميع تأسيس دولة عربية تمثل البصرة وبغداد والموصل تحت حكم أمير عربي حلاً مثالياً».

ولما كانت بريطانيا قد أعطت وعوداً كبيرة وكثيرة لعدة أطراف قبل الحرب وأثناءها، فقد فشلت في تنفيذ هذه الوعود وإرضاء جميع الأطراف. فاتفاقية سايكس - بيكو التي كانت بين بريطانيا وفرنسا وروسيا نصّت على أن تعطى فرنسا القسم الأكبر من سوريا وجزء من جنوب الأناضول وولاية الموصل. أما اتفاقية سان ريمو فقد أعطت

(1) د. فاضل حسين، **مشكلة الموصل**، مطبعة اشبيلية، بغداد، 1977.

نفط العراق لبريطانيا وفرنسا وخصت بريطانيا بالانتداب على العراق، لكن قيام الثورة البلشفية فضح هذه الاتفاقيات، واضطر بريطانيا وفرنسا بشكل خاص أن تجريا مباحثات طويلة وشاقة من أجل تسوية المشاكل المعلقة وأن تتفقا على تبعية ولاية الموصل، وعلى كيفية اقتسام الثروة النفطية، وهذا أدى إلى بقاء بعض القضايا معلقة ومجالاً للمساومات، ثم أدّى إلى تدخّل أطراف أخرى، بما في ذلك عصبة الأمم، لحل هذه النزاعات.

وباعتبار أن ولاية الموصل ظلت موضع نزاع ومفاوضات، ولكون الولاية تضم بين سكانها مجموعات عرقية متعددة، فقد حاولت الأطراف المتنازعة أن تعزز مواقعها وأن تمالئ أكبر عدد من المجموعات العرقية، كي تكسبها إلى جانبها، الأمر الذي استدعى تدخلات كثيرة، واستطلاع آراء من قبل لجان متخصصة سميت من عصبة الأمم، أو من بعض الدول التي عرضت وساطتها، مثل الولايات المتحدة، والتي أصبحت شريكة في هذا النزاع بمرور الوقت وليكون لها في النهاية نصيب في الثورة النفطية.

من جملة الضرورات التي فرضت على الاحتلال، خاصة بعد ثورة العشرين، عدم إمكانية استمرار الحكم البريطاني المباشر، نظراً للمساوئ الكثيرة التي تكشفت عنه، ولأن الرأي العام البريطاني أخذ يطالب بالجلاء عن العراق نتيجة الأعباء المادية الكبيرة التي تكلفتها الخزينة البريطانية، وقد دفع هذا إلى اختيار صيغة «وطنية» تمثلت بحكومة مؤقته، تم تشكيلها برئاسة عبد الرحمن النقيب، وباختيار الملك فيصل ليكون حاكماً للعراق.

هذه الصيغة للحكم التي تم التوصل إليها كلفت وقتاً وجهداً

كبيرين، بسبب كثرة الطامحين للعرش، ولأن الكيفية التي ستعتمد للاختيار ظلت موضع أخذٍ وردٍّ بين أطراف عديدة في الهند والقاهرة ولندن، ولأن الحاكم البريطاني وفريقه في بغداد لم يحسموا الأمر ما إذا كان من الأفضل اختيار رئيس الدولة من قبل جمعية تأسيسية أم اللجوء إلى الاستفتاء لمعرفة رغبات السكان، وأخيراً تم اعتماد طريقة الاستفتاء باعتبارها أكثر سهولة.

جرى الاستفتاء وتم اختيار فيصل بن الحسين ملكاً للعراق، ومشكلة الموصل لم تحل بعد، مع الإشارة إلى أن بعض الجهات قاطعت الاستفتاء، وأخرى، مثل كركوك، صوتت ضد فيصل، ورفضت السليمانية الاشتراك، وفي كربلاء تمّت الموافقة على اختيار فيصل ملكاً شرط أن يكون العراق مستقلاً، وفي الموصل وأربيل انتخب الكثيرون فيصلاً شرط حماية الأقليات.

تفاوتُ النظرة والمواقف تجاه الشخص الذي سيكون رئيساً للدولة، يجعل أي شخص يتم اختياره لهذا المنصب خاضعاً للإرادة البريطانية، ومقيداً بعدد من الالتزامات، بما في ذلك المعاهدة التي يفترض أن تبرم بين العراق وبريطانيا، وأيضاً بقاء قضية الموصل سيفاً مصلتاً فوق رأس الحاكم، لأن جزءاً مهماً من أرض العراق لا يزال خاضعاً للمساومات، ولا يعرف أي مصير ستنتهي إليه، وهذا ما يجعل الحاكم ضعيفاً ومتردداً، وعرضة لعدد غير قليل من الاحتمالات.

في عام 1923، حين عُقدت معاهدة لوزان، وقد وقّعتها بريطانيا وفرنسا وإيطاليا واليابان واليونان ورومانيا ويوغوسلافيا وتركيا، كان في هذه المعاهدة مواد تتعلق بمشكلة الموصل، إذ نصّت إحدى

المواد على أن خط الحدود بين تركيا والعراق يتم بترتيب بين بريطانيا وتركيا خلال فترة تسعة شهور، وإذا تعذر ذلك يرفع الأمر إلى عصبة الأمم.

ولأن مشكلة الموصل ارتبطت بعدد من العوامل والعناصر المؤثرة، بما في ذلك الأقليات، فإن مشكلة الآثوريين كانت من أبرز القضايا التي بُحثت في مؤتمر القسطنطينية من أجل تعيين الحدود، خاصة وقد تزايدت الشكوى من زيادة النفقات المترتبة على الخزينة البريطانية تجاه العراق.

ولأن العلاقة الأساسية بين بريطانيا والعراق خضعت لمجموعة اتفاقيات تنظم الشؤون المالية والعسكرية، وأُلحقت هذه الاتفاقيات بالمعاهدة الموقعة بين الطرفين عام 1922، فإن مشكلة الموصل، سلباً أو إيجاباً، كانت الأداة التي تستعمل أو يستعان بها للضغط من أجل حمل الحكومة العراقية على تقديم التنازلات.

كان كل ذلك يجري في ظل وضع تركي شديد الاضطراب وفي طور التكوين، إذ بعد أن سقطت الامبراطورية العثمانية لم يتم بسرعة أو بسهولة إعادة ترتيب بقايا هذه الامبراطورية، بما في ذلك المركز، فقد اشتد الصراع بين القوى والتيارات إلى أن وصل كمال أتاتورك إلى سدة الرئاسة وبدأ بتنظيم الدولة التركية وفقاً لأسس جديدة، وفي محاولة للتقليل، قدر الإمكان، من توزيع بقايا التركة العثمانية، وكان ضمن ذلك ولاية الموصل التي ظلت موضع نزاعات ومفاوضات، خاصة وأن سكان هذه الولاية ينتمون إلى أعراق متعددة، وأية تسوية لوضع الولاية، والجهة التي يُفترض أن تتبع لها، لابد أن تأخذ هذه الحقيقة بعين الاعتبار.

ولأن مؤتمر القسطنطينية تمخض عن تكوين لجنة لتقصي الحقائق، فقد بدأت هذه اللجنة بمباشرة مهمة شاقة وبالغة التعقيد، من حيث دراسة طبيعة المنطقة من ناحية التضاريس الطبيعية والجغرافية وانتماءات السكان، وأيضاً رأيهم ورغباتهم حول الجهة التي يودّون الالتحاق بها، وتدقيق الخواص التي تميز هذه المنطقة عن محيطها، بما في ذلك الصفات الجيولوجية والمناخية، لأن جزءاً من الأهمية التي توصف بها الولاية ككل: وجود النفط وحاجة الدول المتزايدة إلى هذه المادة، وبالتالي فإن هذا العامل يعتبر هاماً، وإن لم يكن حاسماً في تحديد مصير الولاية.

بعد أن قدّمت الحكومتان التركية والعراقية البريطانية ما لديهما من معلومات ووثائق، وما عبّرتا عنه من مواقف ورغبات بدأت لجان التحقيق تدقيق المعلومات والتأكد من الوقائع واتجاهات الرأي العام في مناطق النزاع بالذات، كان يجري في ظل جو من الاضطرابات، إذ أخذ كل فريق يحرك القوى والمناطق التي يمكن أن يؤثر عليها أو التابعة له، وهذا أدى إلى تدخل عصبة الأمم مرات عديدة من أجل أن تأخذ المباحثات والمفاوضات مساراً معيناً. وحين تعجز لجنة التحقيق عن البت في بعض القضايا كانت ترفعها إلى عصبة الأمم، التي تحيل بعضها إلى محكمة العدل الدولية لكي تقدم رأياً أو مشورة في القضية المطروحة. ومثلما كانت الأوضاع في تركيا في طور التكوين، فإن أوضاع العراق لم تكن تختلف عن ذلك، فالمباحثات بين بغداد ولندن جارية من أجل الاتفاق على تعديل المعاهدة، والوضع الداخلي في العراق رجراج وعرضة لكثير من التقلبات، والصراع بين السياسيين لا يهدأ إلا ليثور من جديد، خاصة أن

المصاعب الداخلية تزداد، نتيجة الحاجات الملحة لتمويل الميزانية وتسليح الجيش وانتخاب المجلس التأسيسي الذي يُفترض أن يضع دستوراً للبلاد، وأن يحسم عدداً من المشاكل المعلقة، بما فيها العلاقات مع دول الجوار، إذ بالإضافة إلى تركيا كانت هناك الخلافات الحدودية مع إيران والسعودية.

ومع أن الخلاف بين بريطانيا وتركيا كان محتدماً حول مشكلة الموصل، فإن بريطانيا لجأت إلى استخدام هذه الورقة في الضغط على العراق، ولذلك كان موقف بريطانيا يتراوح بين الحماس لحل المشكلة أو إبقائها موضع مساومة لحمل الأطراف الأخرى على تقديم تنازلات وفي أكثر من موقع، وضمن هذه الأطراف فرنسا والولايات المتحدة، وقد أصبحت الأخيرة أكثر تشبثاً من قبل بأن تكون ضمن الشركاء الأساسيين في اقتسام الثروة النفطية.

وتجدر الإشارة هنا إلى أن الرأي العام العراقي كان يزداد عداوة تجاه تركيا ما دامت تتشبث بمطالبها في تبعية لواء الموصل إليها، وكان موقف المجلس التأسيسي يشارك الرأي العام موقفه، وقد حدثت بعض الاضطرابات في الشمال، كوسائل ضغط إضافية، من أجل تغيير الموقف. ولقد أثّر هذا على مضمون ونصوص المعاهدة التي تم الوصول إليها عام 1926، إذ قدم العراق في هذه المعاهدة تنازلات عديدة لبريطانيا، واستطاعت بريطانيا أن تحكم سيطرتها على معظم المرافق.

ومثلما كانت مشكلة لواء الموصل موضع اهتمام الرأي العام العراقي، وكانت موضع متابعة وتفقّد من قبل الدولة العراقية، بما فيها رأس الدولة، الملك فيصل الأول، الذي قام بزيارات متعددة

لهذه الولاية لكي يقوي عزائم السكان، فإن الصحافة البريطانية، والأوروبية بشكل عام ظلت تتابع هذه القضية في كافة المراحل وحول كافة التفاصيل، كما أن البرلمان الإنكليزي أفرد لها أكثر من مناقشة، وقدم حولها آراء واجتهادات عديدة.

وكان الحال كذلك في الأوساط التركية، إذ إن القوى والعلاقات السياسية الداخلية كانت تأخذ بعين الاعتبار الموقف تجاه ولاية الموصل، وبمقدار ما كان هناك مؤيدون للحل وتقديم تنازلات، فإن الاتجاه الشوفيني كان يزداد تشبثاً ورفضاً، وكانت حكومة كمال أتاتورك مضطرة إلى مراعاة الرأي العام هذا والاستجابة لبعض مطالبه.

ترافق تجديد عقد المعاهدة بين بريطانيا والعراق عام 1926 بانتهاء مشكلة ولاية الموصل، وبالتالي الإقرار بكونها تابعة للعراق، ولذلك وجدت هذه المشكلة التي ظلت معلقة منذ نهاية الحرب العالمية عام 1918 حلاً. ولا شك أن أحد أركان هذا الحل مرتبط بنفط الولاية، أي أن النفط كان سبباً في التأخير الذي حصل في حل هذه المشكلة، وعندما تم الاتفاق على كيفية اقتسام الثروة النفطية وجدت المشكلة ككل حلاً.

لقد كان النفط عاملاً أساسياً في قيام ما يسمى بمشكلة الموصل، فهذه المادة كانت مؤكدة الوجود في هذه الولاية، وبكميات كبيرة وقريبة من سطح الأرض، ولأن الدول الاستعمارية بحاجة ماسة إلى هذه المادة لتعزيز قوّتها وآلتها الحربية، فإن التشبث الذي بدا من هذه الدول كان ظاهراً وقوياً، وقد ظهر ذلك قبل الحرب العالمية الأولى، أي أن مشكلة النفط أقدم من مشكلة

الموصل وسبباً هاماً لها. فالسلطان عبد الحميد أصدر عام 1888 فرماناً حصر بموجبه حق البحث عن النفط في ولاية الموصل بالخزانة السَّنِيَّة، أي تابع للسلطان بالذات. وفي عام 1904 حصلت شركة ألمانية على حق مد سكة حديد في الأناضول، ومعها حق التنقيب عن النفط على جانبي السكة، لكن التطورات التي حصلت في الامبراطورية العثمانية خلال تلك الفترة أجّلت متابعة الموضوع.

في عام 1912، وبعد أن انتهت الاضطرابات والصراع على السلطة في القسطنطينية، عاودت الشركة الألمانية تأكيد حقها في

الامتياز النفطي، وأشركت معها هذه المرة شركة بريطانية. وفي عام 1914 تكونت شركة النفط التركية، وهذه الشركة نتيجة اتفاق بين الشركات الألمانية والبريطانية وبموجبه تم اقتسام النفط: 50% لشركة دارسي (البريطانية) 25% للبنك الألماني و 25% لشركة النفط الأنكلوسكسونية، ومُنح كالبنكيان 5% تقتطع من حصص الشركاء دون أن يكون له حق التصويت.

قيام الحرب العالمية الأولى عام 1914 أجّل مواصلة البحث في الموضوع، ثم في وقت لاحق غيّر في صيغة الاتفاقية تبعاً لنتائج الحرب وموازين القوى. وحين بدأت مشكلة الموصل حسب ما أشرنا في البداية، دخلت أميركا كوسيط أولاً لحل المشكلة ثم كشريك. وهكذا بدأت المفاوضات بين الأطراف المعنيّة والمتشابكة حول مشكلة الولاية وحول الاتفاق على أن تشترك الدول الثلاث الرئيسية، وهي بريطانيا وفرنسا والولايات المتحدة، في أن يكونوا شركاء في نفط العراق.

هناك كمٌّ غير قليل من التفاصيل والملابسات التي رافقت هذين الاتفاقين، في هذا الوقت، ولأن العراق طرف أساسي، ولكنه مغيَّب عن هذه المفاوضات ثم الاتفاقيات، فقد أجرت بريطانيا مفاوضات مع العراق انتهت عام 1925، وتم الاتفاق بموجبها على منح شركة النفط التركية حق استثمار النفط.

لكي تحصل الولايات المتحدة على نصيب في نفط الموصل لجأت في مؤتمر لوزان، ثم بعد ذلك، إلى تأييد موقف تركيا، كوسيلة للضغط على بريطانيا كي تقبل بها شريكاً، وهذا ما تم فعلاً،

بحيث وزعت الأنصبة وفيها حصة لأميركا تساوي حصة فرنسا. أما تركيا فقد وافقت أن تنال 10% من حصة العراق، وفي وقت لاحق استبدلت هذه النسبة بمبلغ مقطوع مقداره نصف مليون جنيه استرليني، وبذلك أُسدل الستار عن واحدة من أبرز المشاكل التي خلفتها الحرب العالمية الأولى.

وكي نختم هذا العرض السريع حول مشكلة الموصل لا بد من الإشارة إلى واحدة من أبرز الدراسات التي تناولت مشكلة الموصل وضعها الدكتور فاضل حسين، وكانت عبارة عن رسالة دكتوراة قُدّمت إلى جامعة إنديانا عام 1952؛ والملاحظة الثانية هي أن مشكلة الموصل رغم أنها وجدت حلاً عام 1926، إلا أن مطامع الأتراك وبعض الأقليات لا تزال تملي بعض المواقف والسياسات، الأمر الذي يستوجب الانتباه والاهتمام، ولقد ظهر ذلك في الحرب الأميركية - العراقية في مطلع عام 2003.

اغتيال الملك غازي

الملك غازي، الابن الوحيد للملك فيصل الأول

مكتبة
t.me/t_pdf

ما كاد فيصل الأول يغيب عن هذا العالم حتى بويع ابنه غازي ملكاً للعراق. وقد بدأ عهد الملك الجديد، غازي، بانفجار ثورة الآثوريين مجدداً، إذ كانت التسوية التي توصّل إليها الملك فيصل معهم هشة ومؤقتة، فما كاد يرجع إلى سويسرا لمتابعة علاجه، حتى داهمه موت سريع مفاجئ، فاستغل الآثوريون الظرف وعاودوا الثورة، مما اضطر الملك غازي اللجوء إلى العنف في قمعها، وكان الرأي العام العراقي مسانداً له، لأن قوة الليفي[1] التي صنعها الإنكليز كانت من الآثوريين، ويتسم هؤلاء في مواجهة العراقيين بالقسوة وسوء التصرف. إذ ما تكاد تظهر حالة من حالات التمرد أو التحدي حتى توجّه إليها القوات البريطانية عناصر من الليفي، أو

(1) الليفي: هي القوات التي شكلها الإنكليز، وكانت هذه القوات من الآثوريين، وقد سلحت ودربت لتكون أداة للمواجهة والقمع، وقد تمّت الاستعانة بهذه القوات في معارك عديدة، وكانت تتسم بالقسوة والبذاءة والتعدي على الناس، وقد اعتنى بها الإنكليز عناية خاصة لكي تقوم بهذا الدور. ونتيجة الأساليب التي اتبعتها قوات الليفي تولدت أحقاد ومرارة في قلوب الكثيرين، ولذلك كانت ردود الأفعال حين قامت ثورة الآثوريين في بداية عهد غازي الأول، جامحة وقاسية، وكأنها عملية انتقام من ناحية، وكسر شوكة لهذه القوات كي لا تعاود الإساءة إلى الناس واعتماد العنف في التعامل.

النشابة[2]، والأخيرون من العناصر البدوية ويتم تجنيدهم عن طريق الشيوخ.

كان الناس، بوجه عام، ينظرون إلى الليفي نظرة سلبية وأقرب إلى القسوة في التعامل معهم، الأمر الذي أدى إلى هجرة قسم غير قليل منهم إلى الأقطار المجاورة، خاصة سوريا، وتحولت هذه الهجرة إلى إقامة دائمة وعاد القسم الآخر إلى العراق بعد أن أُخذت عليهم المواثيق والعهود بعدم العودة إلى العصيان أو التمرد.

كان القائد العسكري الذي اعتمد عليه غازي في تصفية هذا التمرد هو بكر صدقي ومن صفات هذا الضابط الكفاءة العسكرية والطموح السياسي، وباعتباره كردياً فقد كان يفكر ويعمل من أجل إنشاء كيان خاص للأكراد في شمال العراق، الأمر الذي كوّن له مناوئين وعداوات ظاهرة أو خفية. وعندما حقق النصر على الآثوريين، وأصبح مركز الأضواء والاهتمام ازداد طموحه السياسي، كما سنرى، وتحولت الأفكار التي كانت تراوده إلى مشاريع.

لقد جاء غازي إلى الملك إذن في هذا المناخ الاستثنائي، فإذا أضفنا إلى ذلك قلة خبرته، نظراً لصغر سنه، إذ كان في أوائل عشرينياته حين استلم الحكم، ثم هذا العدد الكبير من دهاقنة الساسة والعسكريين الذين شاركوا في عدة معارك هامة، وفي أكثر من

---

(2) النشابة: هي قوات بدوية أنشأها الإنكليز من القبائل الموالية، وكان يستعان بها في قمع التمردات في أوساط القبائل، وهي تماثل، إلى حد ما، قوات الليفي، لكن أقل منها عدداً وشراسة. ونظراً لتوالي الثورات والتمردات، خاصة في منطقة الفرات الأوسط، لم تستطع هذه القوات أن تلعب دوراً أساسياً مما أدّى إلى الاستغناء عنها ثم حلها.

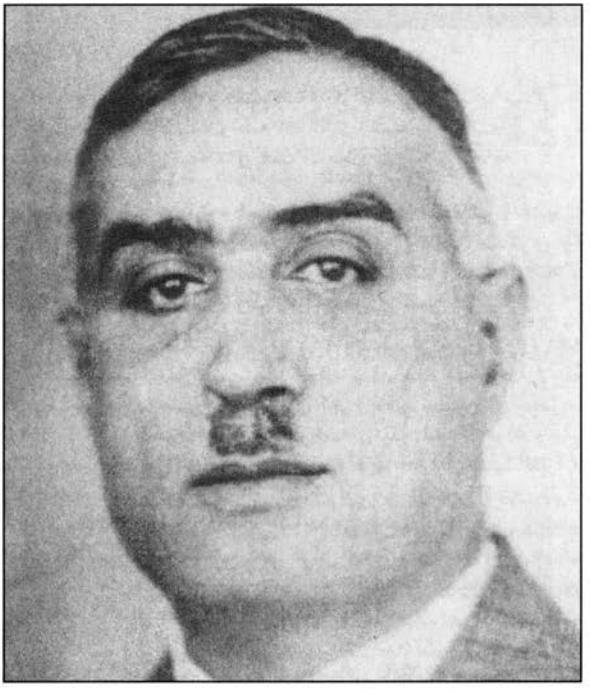

بكر صدقي

مكان، أمثال نوري السعيد وجعفر العسكري وياسين الهاشمي وجميل المدفعي وغيرهم من الجيل الذي رافق فيصل بدءاً من الحجاز، مروراً بسوريا، وصولاً إلى العراق. وكان رأي معظم هؤلاء، وربما كلهم، أن غازي لا يزال غرّاً، وكان بعضهم يطلق عليه لقب الزعطوط، أي الطفل، أو الذي لم يبلغ سن الرشد بعد، بحيث لا يمكن الاعتماد عليه إلا جزئياً، وبالتالي لا يقوى على قيادة سفينة العراق وسط هذا البحر الهائج ووسط هذه القروش المفترسة، خاصة وأن الأفكار والأحلام التي كانت تملأ مخيلته، وسلوكه في التعبير عنها وإعلانها، خلقت له خصوماً إضافيين، عدا عن الموقف

البريطاني الذي يزداد عداوة للملك الجديد، وخشيتهم أن يعاود سلوك أبيه، وأن يعطي أذناً صاغية لأعداء بريطانيا.

وإذا كانت الخلافات في أوساط رجال السلطة والسياسة قد بدأت منذ الفترة الأولى لحكم غازي، وكان كل واحد من أقطاب السياسة يطمح أن يكون الأول، وأن يمتثل الملك لرأيه. فإن أول الخلافات التي ظهرت: زواج الملك. فالملك كان يميل إلى نعمت ابنة ياسين الهاشمي، وقد تعرّف عليها عن طريق أخواته وأخذت تستهويه، فتدخل نوري السعيد لكي يحول دون هذا الزواج، لأنه لو تم فسوف يعزز موقف الهاشمي، ويجعله أقوى لدى الملك. لذلك لم ينتظر نوري السعيد، إذ بادر إلى التعريض والتحريض، وأخذ يؤلّب الجميع ضد هذا الزواج. ومن الكلمات التي لم يكن يمل من ترادها أمام الكثيرين: «هذي العايزة، ما باقي إلا أن ينادي الملك ياسين الهاشمي: يا عمي!»

لم يكتفِ نوري بالتعريض والتحريض، بل لجأ إلى كبار العائلة الهاشمية، خاصة الأمير عبد الله، أمير شرق الأردن، طالباً التدخل ومنع هذا الزواج. ولكي يصل إلى حل عملي اقترح بديلاً لنعمت الهاشمي عالية بنت عمه علي، وكانت تقيم في استنبول، ولم يسبق للملك أن رآها من قبل. وهكذا من خلال الضغط ومحاولات الإقناع، وفي فترة زمنية قصيرة، جيء بالأميرة عالية، وتم عقد قرانها على الملك غازي.

هذه البداية، وفي أمر بالغ الخصوصية والحساسية، شكّلت مناخاً سلبياً في جو القصر الملكي، وسوف يستمر هذا الجو لفترات طويلة لاحقة، لأن هذا الزواج لم يقتصر على الرابطة الزوجية بين

الملكة عالية

اثنين، اي بين غازي وعالية، وإنما امتد إلى معظم السياسيين الذين كان لكل منهم موقف، سلبي أو إيجابي، سواء تجاه الموضوع ثم تجاه التحالفات والخصومات التي نشأت بعد ذلك بتأثير هذا الموضوع أو غيره.

ترافق هذا مع المواقف والقناعات التي كانت تجعل نظرة غازي وسلوكه مختلفين عن أبيه وعن السياسيين الذين كانوا حوله. لقد كان جزء من هذا الاختلاف يعود إلى فارق العمر والتربية والتجارب، ويعود جزء من هذا الاختلاف إلى عدم الإدراك بدقة لموازين القوى

الداخلية والإقليمية والعالمية، ثم إلى العوامل والدوافع التي تكوّن الموقف السياسي. ويعود جزء من هذا الاختلاف إلى المواقف والقناعات التي تمليها الرغبات والأحلام وتدفع صاحبها إلى سلوك يختلف عن سلوك الشيوخ المجرمين.

فالإنكليز الذين يمثلون قوى الاحتلال، وطبيعة العلاقة المجحفة التي نشأت بينهم وهم في ذروة مجدهم، وبين العراق، هذا البلد الصغير الفقير والذي لا يملك من الإمكانيات إلا القليل. وقد تمثلت العلاقة بمعاهدات واتفاقيات غير متكافئة، وملزمة لفترات طويلة! ثم انحياز بريطانيا المكشوف والعلني للحركة الصهيونية وحماستها لإقامة كيان لهذه الحركة في فلسطين، وبدأ يتضح بشكل متزايد أن المشكلة الفلسطينية سوف تكون جذر المشاكل جميعها، وأخيراً مشاكل الجوار وما ولّدته من مصاعب وتحديات، خاصة مشاكل الكويت التي كانت تهبّ رياحها باتجاه العراق.

هذه القضايا أخذت تتفاعل بشكل متزايد، وبدأت الأجواء تتلبد، مما دفع غازي أن يبدأ الهجوم قبل أن تصل النيران إلى العراق. كان يريد أن خلق رأي عام عراقي ثم عربي يقف معه وإلى جانبه، ويفترض في هذا الرأي العام أن يكون ملمّاً بالقضايا المطروحة وأن يعي مخاطرها ونتائجها.

ولأن هواية تمكنت من غازي منذ وقت مبكر، وهي أدوات اللاسلكي والبث الإذاعي، فقد أقام إذاعة في قصر الزهور، وكان يشرف عليها شخصياً، يقضي وقتاً مديداً كل ليلة وهو يوجه ويذيع، وكان يركز هجومه على الإنكليز والصهاينة ثم القوى الرجعية

المرتبطة بالإنكليز. ومن أجل أن تقوم الإذاعة بدورها على أكمل وجه، فقد ضاعف قوّتها مرة بعد أخرى إلى أن أصبحت أقوى من إذاعة بغداد الرسمية، وتُسمع في أنحاء عديدة من المنطقة.

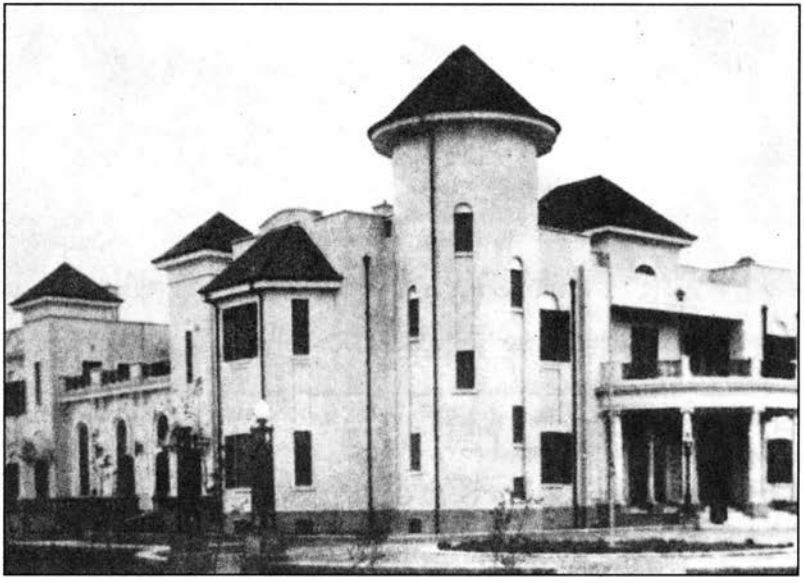

قصر الزهور

هذه الإذاعة أزعجت الإنكليز كثيراً، كما ألّبت خصوم غازي السياسيين عليه، وبدا واضحاً أن الصدام بين الطرفين لا بد واقع إذا لم يكن اليوم فغداً. وبانتظار الفرصة المناسبة كان كل طرف يحشد ويستعد.

وقد تتالت المناسبات الواحدة بعد الأخرى، وخلقت الأجواء المساعدة على وقوع الصدام، أولاً بين الأطراف السياسيين، ثم وصلت في النهاية إلى الملك ذاته وأخذته في دوامتها.

فبكر صدقي الذي استعان به غازي لقمع ثورة الآثوريين، والذي استطاع أن يحقق مجداً عسكرياً وسياسياً، ما لبث أن ازداد طموحه، وبدأ يشتغل لحسابه الخاص بدل أن يشتغل لحساب الآخرين، وهكذا ما إن وقعت خلافات بين السياسيين، وبدأ الجو يكفهر حتى تقدم بكر صدقي خطوات عديدة للأمام، وفرض نفسه شريكاً أولاً، ثم أراد أن يختص بالحكم كله أو القسم الأكبر منه. وبسلوكه هذا هيأ المسرح تماماً لأول انقلاب عسكري في المنطقة العربية، وكان هذا ما وقع في عام 1936.

إذ ما كاد يفرض نفسه ثم الوزارة التي اختارها حتى تصدى له جعفر العسكري، وكان من أبرز القادة العسكريين والسياسيين، وكانت فرصة لأن تتم عملية اغتياله، وهو يحاول وضع حد للانقلاب. جرى ذلك في جو من الملابسات وتداخل الأوراق والعناصر، وحين احتج نوري السعيد ورفع الصوت عالياً، باعتباره الصديق الحميم للعسكري ومنذ فترة طويلة، فإن المصاهرة التي ربطت بينهما جعلت العلاقات وثيقة وغير قابلة للانفصام، وحين رأى السعيد الكفة تميل إلى مصلحة خصومه، ولا يقوى على منازلتهم في التو واللحظة وفي العراق، لجأ إلى مصر ليقيم هناك، ولكي يواصل اتصالاته ويهيئ نفسه للمنازلة.

لم تقتصر الهجرة أو المنفى على السعيد، إذ طلب من الهاشمي مغادرة العراق، فلجأ إلى الإقامة في بيروت، وكذلك الحال بالنسبة للمدفعي ولآخرين. وازداد بكر صدقي نفوذاً وتعسفاً، بحيث إن عدداً من الوزراء الذين شاركوه الحكم في البداية، ما لبثوا أن انفضوا من حوله، وغادر بعضهم العراق أيضاً.

ولأن طموحات بكر صدقي بإقامة كيان كردي في الشمال العراقي أصبحت علنية ومكشوفة فقد تألّب عليه عدد من الضباط القوميين، وأخذوا يتحينون الفرص للفتك به، خاصة بعد أن وثق علاقاته مع تركيا وأخذ ينسق معها.

ولم يطل الأمر كثيراً، إذ حين كان يستعد للمغادرة إلى تركيا، من أجل التنسيق العسكري بين البلدين، وأثناء استراحته في مطار الموصل قبل أن يواصل سفره، دبرت عملية اغتياله، وهكذا تم القضاء على هذا العسكري الطموح، لكنه بانقلابه المذكور هيأ الجو لسلسلة من الانقلابات في الشرق الأوسط ما لبثت أن تتالت الواحد بعد الآخر، وعمّت معظم أجزاء المنطقة.

أما نوري السعيد الذي قضى فترة ينتظر ويتآمر ويرسل الموفدين لاستطلاع وضع العراق، فما إن سقط الانقلاب وتم اغتيال بكر صدقي حتى عاد إلى العراق، عاد لينتقم من خصومه والذين تخلوا عنه في محنته، وأيضاً لكي يدبر صيغة وتحالفات تمكنه من العودة إلى السلطة، ولكي يبقى لأطول فترة ممكنة، ولكي يطبع العراق بخاتمه ويعطيه ملامحه إلى حين قيام ثورة تموز عام 1958.

ياسين الهاشمي الذي أقام في بيروت لم يقدّر له العودة إلى العراق مرة أخرى، فقد وافته المنية نتيجة أزمة قلبية أصابته في بيروت، وحين تقرر نقل جثمانه إلى العراق رفضت الحكومة، الأمر الذي دعا إلى دفنه في دمشق.

بدا واضحاً من عدد غير قليل من الدلائل والمؤشرات أنه لم يعد للصلح مكاناً بين نوري السعيد وبين الملك غازي، ولا بين

الملك والإنكليز، وأصبحت المؤامرات داخل القصر هي الصفة المميزة لعلاقة السياسيين بالملك، خاصة نوري. كما أن القوى التي يمكن أن تساهم في حسم المعركة تلخصت بالأمير عبد الإلّه ابن الملك علي والأميرة عالية زوجة الملك غازي، وبينهم وبين الإنكليز الذين يودون التخلص منه بكل معنى الكلمة. وهكذا دبرت عملية اغتيال الملك في ليل بهيم، من قِبَل بعض خدم القصر، وبادعاء أن عمود الكهرباء سقط على السيارة التي كان يقودها الملك، في الليل المتأخر، وهو في طريقه إلى الإذاعة.

وخلال فترة قصيرة وباستدعاء أطباء وضعوا تقريراً حول الوفاة، وصادق رئيس الوزراء، نوري السعيد، وعدد من الوزراء على التقرير، أُغلق النعش بسرعة وجرى دفن الملك في اليوم التالي، وسمّي عبد الإلّه وصياً على العرش، لأن الملك فيصل الثاني كان صغيراً قاصراً، وشهدت الملكة عالية أن الملك غازي أوصى أن يكون عبد الإلّه وصياً على ابنه إذا لحق به مكروه!

وهكذا أُسدل الستار على واحدة من تراجيديات الأسرة الهاشمية في العراق، وكان بطلها الضحية غازي، وفرسانها: نوري السعيد وعبد الإلّه والملكة عالية. وبغياب غازي انطفأ هذا الشهاب الذي أضاء سماء العراق، وأنبأ أن أياماً صعبة لا بد آتية، وأن القتل إذا بدأ في إحدى الأسَر، خاصة إذا كانت أسرة حاكمة أو مالكة، فهو سيعصف بالكثيرين وربما يدمر هذه الأسَر، وهذا ما توالى وقوعه في العراق عقداً بعد آخر، وما زال مستمراً.

شهادات بعض الذين كانوا قريبين من الحادث:

1) رشيد عالي الكيلاني:

«عندما علمت بالحادث من نوري السعيد توجهت فوراً إلى القصر وكان الطبيب سندرسن يعمل على إخفاء مكان الإصابة باللفائف والضمادات، ورأيت مكان الإصابة فكانت في مؤخرة رأسه ولم تكن من أمام حيث توقعت أن يصيب عمود النور رأس الملك!»

2) ناجي شوكت، وزير الداخلية:

«لا يُستبعد أن يكون كل ذلك قد تم تدبيره من نوري السعيد وعبد الإلّه وباتفاق مع السفارة البريطانية في بغداد، شاركتهم فيه زوجة القتيل التي كانت تكره زوجها»

3) توفيق السويدي:

«أبدى لي المستر بتلر، وكيل وزارة الخارجية البريطانية، شكوى عنيفة من تصرفات الملك غازي فيما يتعلق بالدعاية الموجهة إلى الكويت من إذاعة قصر الزهور»

4) صلاح الدين الصباغ:

«ولكن الشعب والجيش لم يصدقا هذا التلفيق، واتضح أن للوصي ونوري إصبعاً في الموضوع»

5) ويقول أحد العاملين في القصر:

«لم يحضر من يدعى بطبيب العائلة الملكية الخاص، سندرسن، إلا بعد ساعة من الحادث وأعقبه بقية الأطباء بعد أن كان غازي قد فارق الحياة». «وكان نوري أول الحضور إلى القصر

فاختلى بالملكة عالية والأمير عبد الإلّه واتفقا على تنصيب عبد الإلّه وصياً على العرش»

وهناك شهادات كثيرة أخرى وكلها تُجمع على أن غازي قُتل من قِبَل أحد الذين رافقوه في السيارة. كما أن الدلائل والقرائن تؤكد هذا الأمر.

وهكذا دخل العراق في طور جديد.

ياسين الهاشمي:

الشهاب الذي هوى

ياسين الهاشمي: مناوءة السياسة البريطانية

بدا واضحاً بغياب فيصل الأول في آب 1933، أن العراق دخل في طور سياسي جديد. فالملك الشاب، غازي، تملأ رأسه أفكار وأحلام تختلف عن أفكار وأحلام أبيه الراحل، والقضايا التي كانت قابلة للتسوية عن طريق التفاوض أصبحت تحتاج إلى القوة في تسويتها، ولعل مشكلة الآثوريين إحدى أبرز المشاكل التي واجهت العهد الجديد في أيامه الأولى. ومن خلال المعارك ونتائجها تتولد قوى جديدة. وكما أشرنا في مقال سابق، أن بداية صعود بكر صدقي كانت لكونه الذي قام بتأديب الآثوريين وإنهاء تمردهم. وإذا كان النصر الأول في معظم الحروب ينسب إلى القادة السياسيين بالدرجة الأولى، ويكون العسكر في الغالب أدوات تنفيذ، فإن الانتصارات اللاحقة، خاصة إذا حققها القادة العسكريون أنفسهم، يكون هؤلاء القادة شركاء، ثم لا تلبث أن تنسب إليهم، مما يجعل قاماتهم ترتفع وأسماءهم تملأ الأسماع والأبصار، وهذا ما حصل لبكر صدقي على وجه التحديد، إذ بعد أن قام أيضاً بالقضاء على تمرد العشائر في الفرات الأوسط، أصبح له رأي، صراحة أو ضمناً، فيمن يكون رئيساً للوزراء، ومَن هو الأكثر ملاءمة لوزارة الدفاع ورئاسة الأركان، وهكذا.

كما أن طبيعة العلاقة التي قامت بين بريطانيا والعراق، خاصة خلال الفترة الأخيرة من حكم فيصل، والتي كانت تتسم بالتوتر وتزايد اختلاف وجهات النظر، هذه العلاقات استمرت سلبياتها تتصاعد، وبسبب المواقف التي اتخذها غازي. إذ إضافة إلى استمرار تأييده للقضية الفلسطينية، وتزويد المجاهدين الفلسطينيين بالدعم والمساندة، فإن الأحداث التي وقعت في سوريا خلال هذه الفترة زادت العلاقات سلبية واحتداماً. وكانت الإذاعة التي أقامها في قصر الزهور تهاجم الاستعمارَين البريطاني والفرنسي بالاسم، وتدين تصرفاتهما، وتحرض على الصمود والمقاومة. أكثر من ذلك ساهم غازي في إمداد الثوار السوريين بالأسلحة والدعم.

في المقابل، وبعد أن كان الحوار هو السمة الغالبة في العلاقة بين الساسة العراقيين، فقد لجأ أغلبهم إلى تكوين قوى خاصة بكل منهم بين العشائر أولاً، ثم في صفوف النواب من أجل الحصول على التأييد الذي يمكّنه من تحقيق سياسته ومآربه، وأصبح الحوار، إذا جرى، غطاء للمواقف الحقيقية وتمويهاً لها. وبهذه الطريقة حصل أكثر من مرة اصطفاف مختلف للقوى السياسية، إذ تكونت أحزاب جديدة، أو ظهرت إلى العلن أحزاب كانت تعمل في الخفاء، كما أصبحت الصحافة قوّة يحسب لها حساب في المواقف والعلاقات.

ولا بد من الإشارة أيضاً إلى أن بعض الشؤون شغلت الملك غازي عن ممارسة دوره الكامل كصاحب سلطة، الأمر الذي شجع أفراد الطبقة السياسية على أن يطمحوا ويعملوا لإشغال أدوار سياسية أكبر وأهم، وهذا ما يفسر الصراع بين هؤلاء، وبالتالي سرعة تغير

الوزراء والوزارات ومحاولة الوصول إلى صيغة أكثر دواماً واستمراراً.

كان من جملة التغيرات الكبيرة في هذه الفترة أن كُلّف ياسين الهاشمي بتشكيل الوزارة، وهذه الشخصية لها حضور مميز منذ وقت مبكر، فقد اشترك في بعض معارك الحرب العالمية الأولى، وكان ضابطاً مرموقاً في الجيش العثماني، وبعد أن عاد من هذه المعارك التحق بالثورة العربية التي قادها الحسين بن علي واستقر في دمشق، وقد شارك في إنشاء دولة فيصل واحتل فيها مراكز هامة ومرموقة، نظراً لما يتمتع به من كفاءة وإخلاص، وحين سقطت دولة فيصل وذهب إلى العراق، منعت السلطات البريطانية ياسين الهاشمي من العودة إلى موطنه الأصلي نظراً إلى ما يحتمل أن يشكله من خطر على الاستعمار البريطاني هناك، لكن هذا المنع لم يطل، إذ توسط له فيصل الأول وسمحت له بريطانيا أخيراً بالعودة.

بمجرد أن عاد ياسين الهاشمي إلى بغداد بدأ نشاطاً مكثفاً وفي شتى المجالات، وكانت سمعته الوطنية ونزاهته تشقان له الطريق أينما ذهب وأينما حل، بحيث لم تمض فترة قصيرة إلا وأصبح أحد أبرز الرموز السياسية الوطنية وأقدر المعبرين عنها، خاصة وأن كفاءاته لم تقتصر على الجوانب السياسية وإنما تضافرت مع الكفاءات الأخرى في المجال المالي والحقوقي والشؤون البرلمانية وغيرها، الأمر الذي أهّله مبكراً لتولّي رئاسة الوزارة، وأن ينشئ حزباً سياسياً، وأن يستمر دون خوف في مناوءة السياسة البريطانية. ولقد تلاقى في هذا مع فيصل الأول، ثم غازي بعد ذلك.

وما إن اضطربت الحياة السياسية في منتصف عقد الثلاثينات

حتى جيء بياسين الهاشمي رئيساً للوزراء، وكانت سياسته قد تحددت بوضوح، ومواقفه بمقدار ما تستقطب القسم الأكبر من الرأي العام، فإنها تثير قسماً غير قليل من الطبقة السياسية وبريطانيا، ومعهما محلياً الجالية اليهودية الكبيرة والنشيطة، إضافة إلى بعض الأقليات الأخرى.

كانت مآخذ بريطانيا، ومعها أتباعها، على ياسين الهاشمي مناوءته للسياسة البريطانية ليس في العراق وحده وإنما في المنطقة كلها، وبالتالي ضرورة حشد جميع القوى لمواجهة هذا الاستعمار ومنازلته بكافة الوسائل والأساليب. وينسحب الموقف ذاته على الاستعمار الفرنسي، خاصة في سورية ولبنان، البلدين اللذين يكنّ لهما ياسين الهاشمي عواطف إيجابية وتقديراً خاصاً، نظراً لأنه عرفهما عن قرب وتربطه بقادتهما الوطنيين روابط وثيقة.

خلق هذا المناخ مواقف سلبية وإيجابية تجاه هذا الرجل؛ يضاف إلى ذلك أن ياسين الهاشمي تبنّى في هذه المرحلة، ومن أجل إنشاء جيش وطني وتقويته، شعار التجنيد الإجباري. هذا الشعار الذي قسم الرأي العام المحلي وألّب قسماً كبيراً من العشائر ضده، وقد لعب السياسيون الخصوم لياسين دوراً في هذه التعبئة المعادية. لم يقتصر الأمر على ذلك، فقد حصلت بعض التمردات والعصيانات خاصة في الفرات الأوسط، وفي الشمال بين الأقليات، وكما ذكرنا لجأت السلطة إلى العنف، وإلى استخدام الطيران في قصف مواطن التمرد.

صدف في هذه الأثناء أن دُعي طه الهاشمي، الأخ الشقيق لياسين، وكان رئيساً للأركان، إلى إنكلترا لحضور المناورات هناك،

ولكي يتم التباحث بشأن صفقة الأسلحة التي طلبها العراق من بريطانيا. وكلف طه الهاشمي بكر صدقي لكي ينوب عنه، وكالة، في رئاسة الأركان. وكلفه أيضاً أن يقوم بالإشراف على مناورات الخريف التي يجريها الجيش العراقي كل سنة.

لم يُخفِ بكر صدقي غبطته بهذا التكليف الذي جاء له كهدية من السماء، وبدأ يعمل بإصرار وهدوء من أجل تنفيذ الخطة التي بيّتها في ذهنه منذ فترة طويلة، فقد نقل القطعات إلى القرب من بغداد، وأجرى تنقلات في صفوف القادة العسكريين المسؤولين، وأخذ يزور القطعات والقادة العسكريين في مواقعهم ليمتّن العلاقة معهم ولمعرفة حقيقة مواقفهم تجاهه. كان يقوم بهذه التحركات بالتنسيق مع حكمت سليمان، وأصبح الاثنان شريكين بكل معنى الكلمة. وأصبحا يحشدان القوى ويعبئان الرأي العام بمواقف سلبية مناوئة لياسين الهاشمي، مستغلين المصاعب والتحديات التي كانت تنشأ بين الوزارة والقصر، وبين الوزارة وخصومها السياسيين.

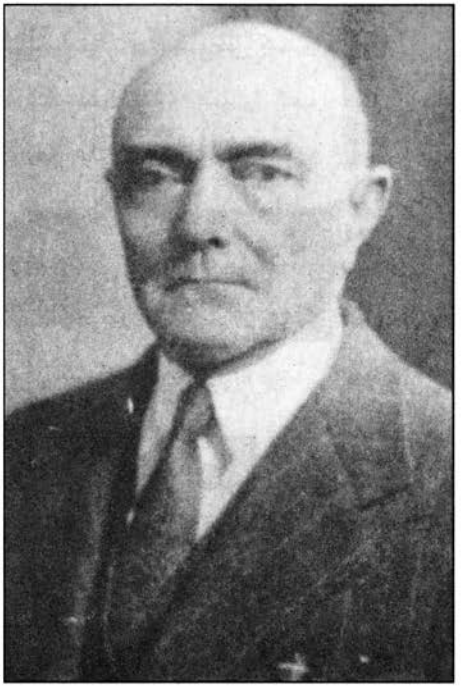

حكمت سليمان

ما إن اقترب موعد

جعفر العسكري

مناورات الخريف حتى صعّد بكر صدقي مواقفه ومطالبه تجاه القصر، بضرورة استقالة وزارة الهاشمي، لأن الرأي العام لم يعد يطيق استمرارها. كما لجأ إلى استغلال خصومات بعض الضباط مع الوزارة ومع وزير الدفاع، جعفر العسكري بالذات. فالفريق عبد اللطيف نوري الذي كان ناقماً على ياسين الهاشمي وجعفر العسكري لأنهما لم يوفداه إلى الخارج من أجل المعالجة، أصبح الآن مؤيداً لبكر صدقي وهو يطالب بإقالة الوزارة. أما الضباط المناوئون له في الخط السياسي فقد جمد القسم الأكبر منهم حين وضعهم في المكاتب وأبعدهم عن قطعاتهم العسكرية. كما لم يتردد بتصفية ضباط آخرين لأنهم استعصوا عليه، أو لكونهم يعرفون من المعلومات أكثر مما ينبغي.

في يوم 29 تشرين الأول أعلن بكر صدقي زحفه على بغداد، كما أرسل ثلاث طائرات حربية ألقت مناشير تتضمن مطالب الجيش. وكان نص البيان كما يلي:

«أيها الشعب العراقي الكريم،

لقد نفذ صبر الجيش المؤلف من أبنائكم على الحالة التي تعانونها من جراء اهتمام الحكومة الحاضرة بمصالحها وغاياتها الشخصية دون أن يكترث بمصالحكم ورفاهكم، فطلب إليّ صاحب الجلالة المعظم إقالة الوزارة القائمة وتأليف وزارة من أبناء الشعب المخلصين، برئاسة السيد حكمت سليمان الذي طالما لهجت البلاد بذكره الحسن ومواقفه المشرفة. وبما أنه ليس لنا قصد من هذا الطلب إلا تحقيق رفاهكم وتعزيز كيان بلادكم، فلا شك أنكم ستعاضدون قواد الجيش ورؤساءه في ذلك وستؤيدون بكل ما أوتيتم من قوة. وقوة الشعب هي القوة المعوّل عليها في الملمات. وأنتم أيها الموظفون لسنا إلا إخواناً وزملاء لكم في خدمة شعبكم قبل كل شيء. فلا بد وأنكم ستقومون بهذا الواجب الذي ألجأنا إلى تقديم طلبنا إلى صاحب الجلالة ملكنا المفدى لإنقاذ البلاد مما هي فيه فتعارضون الحكومة الحاضرة، تتركون دواوينها ريثما تؤلف الحكومة التي ستفخرون بخدمتها. إذ ربما يضطر الجيش بكل أسف إلى اتخاذ تدابير فعالة لا يمكن خلالها اجتناب الإضرار بمن لا يلبي الدعوة المخلصة مادياً وأدبياً».

1936/10/29

الفريق بكر صدقي العسكري

قائد القوة الوطنية الإصلاحية

أرفق بكر صدقي هذه المناشير بإنذار حول ضرورة استقالة وزارة ياسين الهاشمي خلال ثلاث ساعات، وإلا فسوف يلجأ إلى القوة. وحين انقضت هذه الساعات الثلاث ولم تستقل الوزارة المذكورة هاجمت الطائرات بغداد وألقت قنابلها عليها، مما أدى إلى تلاحق التطورات بسرعة كبيرة، إذ استقالت الوزارة الهاشمية، واتجه العسكري إلى ملاقاة بكر صدقي، لكن ما لبث أن قتل العسكري من خلال كمين هيأه له بكر. وتشكلت وزارة حكمت سليمان التي اشترطت أن يتم تسفير نوري السعيد وياسين الهاشمي ورشيد عالي الكيلاني إلى خارج البلاد، فالتجأ نوري إلى السفارة المصرية التي قامت بتسفيره إلى القاهرة. أما الهاشمي والكيلاني فقد اتجها إلى سورية بحراسة مشددة.

لم يقتصر طلب المغادرة على هؤلاء الأشخاص الثلاثة، إذ طلب من آخرين، من وزراء وأقارب أن يغادروا أيضاً، فغادر صادق البصام وزير المعارف، ورؤوف البحراني وزير المالية، وعدد آخر من الأقرباء أو المحسوبين على القادة المذكورين.

تلا ذلك تعطيل بعض الصحف وحل المجلس النيابي، وانتهاج سياسة معادية للخط السابق، والذي كان خطاً عربياً متميزاً، ولجأ بكر صدقي ومعه حكمت سليمان إلى الاعتماد بشكل متزايد على عناصر الأقليات واضطهاد القوميين، وأخذت التهديدات بالتصفية المادية توجه إلى قادة البلاد ورموزها. أكثر من ذلك جرت أكثر من محاولة لاغتيال بعض الشخصيات الوطنية، فقد أُطلقت النار على مولود مخلص، وقُتل شقيق جعفر العسكري، ومُنعت زوجة جعفر من الإقامة في العراق، وأُرغم رستم حيدر على الاستقالة كوزير

للبلاط واضطر إلى مغادرة البلاد.

من الأمور التي قام الكثير من الشواهد عليها: علاقة بكر صدقي الوثيقة بالسفارة البريطانية وتعاونها معه منذ وقت مبكر. كما أن بكر صدقي حرص على زيادة تعاونه مع الجالية اليهودية الكبيرة والواسعة النفوذ في العراق، ولعل علاقته بأحد أقطاب الجالية في بغداد، والذي كان وثيق الصلة بأكثر من مخابرات أجنبية، يدعى جستن، وكان وثيق الصلة بشخصه، وكان هذا في البداية موظفاً في الدوائر البريطانية ثم ما لبث أن فتح محلاً تجارياً في بغداد يبيع فيه السلع النادرة وغالية الثمن للطبقة المترفة من العراقيين والأجانب. جستن هذا ما لبث أن فتح بيته للسهرات التي يدعى إليها علية القوم، وكان من بين هؤلاء بكر صدقي وحكمت سليمان، وكانا يترددان على هذا البيت بشكل متزايد ويلتقيان فيه، بالإضافة إلى الحسان، بإعداد من الجواسيس والطامحين للقيام بدور سياسي.

جستن هذا ما لبث أن غادر العراق في أواخر الأربعينات إلى فلسطين، وهناك انضم إلى إحدى المنظمات الإرهابية الصهيونية وحارب في صفوفها إلى أن سقط قتيلاً.

ورغم تزايد مشاغل بكر صدقي، فقد وجد الوقت المناسب والكافي لكي يعقد قرانه على إحدى السيدات النمساويات، وكانت امرأة رشيقة القوام فاتنة الجمال ولها صلات وثيقة بدوائر المخابرات البريطانية. وانتهز اليهود مناسبة الزواج لكي يقدموا لبكر صدقي أغلى الهدايا وأثمن المجوهرات.

أما الأوضاع في داخل العراق فقد اتسمت بمعاداة حكومة بكر صدقي، وحين أتيحت فرصة للتمرد خاصة في الفرات الأوسط، فقد

لجأت الحكومة إلى قصف مناطق التمرد عن طريق الطيران، مما أدى إلى خسائر فادحة في الأرواح والممتلكات. وقد اعتبر بعض وزراء حكومة حكمت سليمان هذه القسوة المبالغ فيها سبباً كافياً للاستقالة، فاستقال من الوزارة كل من جعفر أبو التمن وكامل الجادرجي وصالح جبر ويوسف عز الدين.

في ظل هذه الفوضى، وارتخاء قبضة حكمت سليمان على السلطة، وتزايد نقمة الرأي العام، خاصة في أوساط الجيش، وتحديداً الضباط ذوي الاتجاهات القومية، أخذت تُنسج المؤامرات للإيقاع ببكر صدقي.

أما كبار السياسيين، خاصة المنفيين، مثل نوري السعيد وزميليه، الكيلاني وياسين الهاشمي، فقد لجأ بعضهم إلى إيفاد الأقرباء والمخلصين إلى بغداد لدراسة الأحوال واستطلاع الرأي العام، وأيضاً للقيام بالاتصالات وحمل الرسائل، خاصة من نوري السعيد.

وفيما كانت تجري هذه التحركات والاتصالات حتى «طوى الجزيرة وجاء الخبر»: لقد توفي ياسين الهاشمي في بيروت بأزمة قلبية.

كان لهذا الخبر وقع الصاعقة على كثيرين، وفي أكثر من قطر عربي، نظراً لما يتمتع به هذا القائد الفذ من سمعة حسنة وماض ناصع، واعتبر هذا الغياب، وفي ذلك الوقت بالذات، خسارة لا تعوض، خاصة للعراق.

وبعد أن زالت الصدمة المباشرة بدأ التفكير والعمل من أجل

نقل الجثمان إلى العراق لكي يدفن هناك، لكن الحكومة العراقية رفضت استقبال الجثمان، فتولدت مرارة مضاعفة نتيجة هذا الموقف، واتجه التفكير والعمل إلى دفنه في دمشق، باعتبار أن سورية وطنه الثاني، إن لم يكن الأول. وتعبيراً عن الاحتفاء البالغ والاهتمام الكبير أُقيمت للراحل جنازة لم تشهد دمشق لها مثيلاً. لم يقتصر الأمر على ذلك، فقد دفن ياسين الهاشمي إلى جانب صلاح الدين تقديراً واحتراماً.

والآن، فإن أي زائر لدمشق، وبعد أن يفرغ من زيارة مسجد بني أمية، لا بد أن يعرج على قبر صلاح الدين، القريب من المسجد، ليقرأ الفاتحة عن روحه. وسيرى أي زائر أن ثلاثة قبور حظيت بشرف مجاورة صلاح الدين الأيوبي: ياسين الهاشمي، والطياران التركيان اللذان وصلا إلى دمشق في أول رحلة جوية في أعقاب الحرب العالمية الأولى، وقد سقطت الطائرة حين كانت تهم بالإقلاع للمغادرة، بعد ثلاثة أيام قضتها في دمشق، سقطت الطائرة في مكان معرض دمشق الدولي الحالي.

وهكذا انطوت صفحة أخرى من تاريخ العراق والمنطقة، لكن لا يزال أريجها يملأ المنطقة العربية على اتساعها.

سندرسن باشا

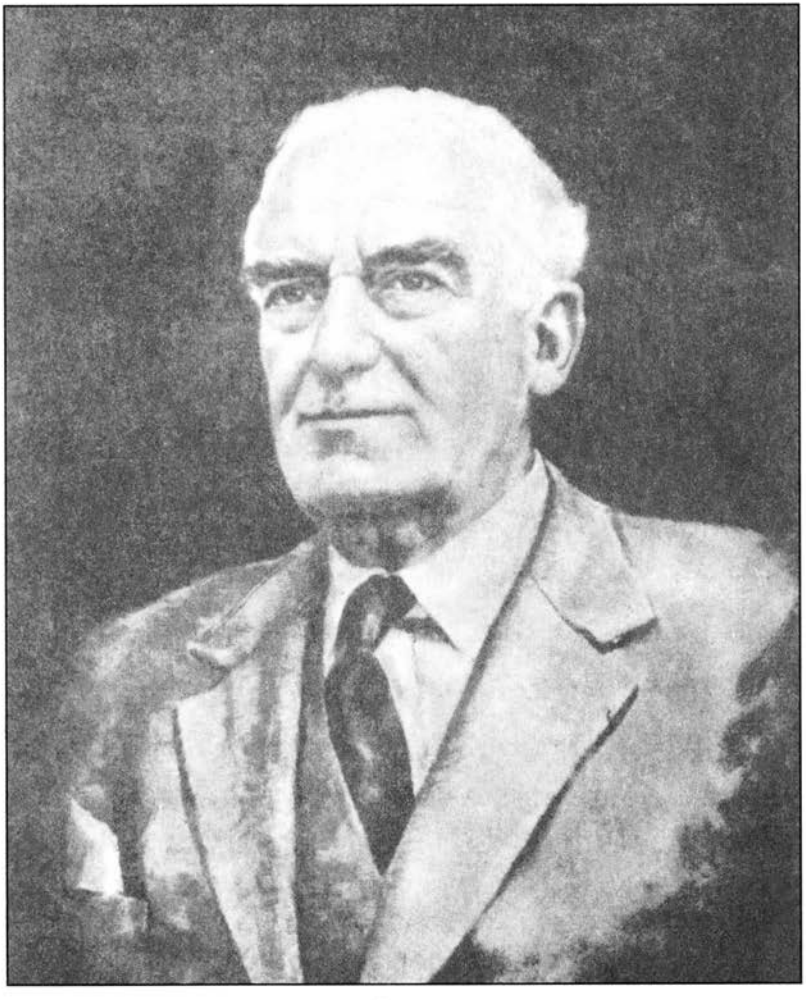

سندرسن «باشا»: أكثر من طبيب

من الشخصيات الإنكليزية التي لعبت دوراً مهماً في تاريخ العراق الحديث، خلال النصف الأول من القرن العشرين: هاري سندرسن.

وسندرسن طبيب ضابط، تخرج من كلية الطب عام 1914 وكان عمره ثلاثاً وعشرين سنة.

ومثل عدد من أفراد أسرته الذين يكبرونه كان الطب والعسكرية يستهويانه، لذلك، وخلال السنوات الثلاث الأخيرة من دراسة الطب، التحق بالكلية العسكرية خلال العطلات الصيفية، وتخرّج من سانت هرست ضابطاً خيّالاً. وحين نشبت الحرب العالمية الأولى، في آب 1914، استدعي للخدمة عند التعبئة العامة، وعُيّن طبيباً على ظهر إحدى السفن المكلفة بنقل الجرحى والقتلى. وفي ربيع 1917 أُبلغ سندرسن أن الاطباء الضباط الذين تقل أعمارهم عن الأربعين سينقلون إلى وظائف فعالة. وهكذا نُقل إلى العراق.

إلى ذلك الوقت كان كل ما يعرفه سندرسن عن العراق هو ما أخذه من التوراة. فالعراق كان المكان التقليدي لجنّات عدن، وعلى

أرضه وقعت مغامرات النبيَّين نوح ويونس. ومدينة أور هي المدينة التي ولد فيها النبي إبراهيم[1]، لكن ما كاد يصل إلى البصرة حتى بدأ يكتشف عالماً ساحراً وغريباً ومختلفاً عما افترضه أو تخيله.

لم يطل سندرسن إقامته في البصرة، إذ بعد فترة ركب سفينة أخرى، صغيرة، متجهة إلى بغداد ليصلها بعد ثلاثة أيام.

في هذه الفترة بالذات وصل السير بيرسي كوكس، الذي عُيّن حاكماً للعراق، والذي يُعتبر من أهم الشخصيات التي كان لها الحضور القوي في هندسة هذا البلد وترتيب أوضاعه.

من الانطباعات الأولى التي تكونت لدى سندرسن، وهو يمخر النهر صاعداً نحو بغداد، أن منظر النهر «ميل بعد ميل يبدو من الأشياء المقيتة»[2]، أما حين وصل إلى العمارة، بالقرب من الأهوار، فقد بدت له تلك «المستنقعات حزينة ويسكنها أناس متوحشون»[3].

لم يمر سوى فترة قصيرة بعد وصول سندرسن إلى بغداد إلا ودعي إلى الانضمام إلى زمرة الحاكم المدني؛ وابتداء من هذه اللحظة أصبح جزءاً من الجهاز الذي يحكم ويراقب العراق كله.

يقول الحاكم البريطاني المدني العام، وهو يفصح عن تصوره لدور سندرسن وأمثاله: «من المفيد جداً أن يتم إقناع الأطباء

---

(1) هذه هي الصورة التي رسمها للعراق في مخيلته.

(2) **مذكرات سندرسن**، ترجمة سليم طه التكريتي، منشورات مكتبة اليقظة العربية، بغداد طبعة 1982.

(3) المصدر نفسه، ص 31.

بممارسة مهمات سياسية، لأن إسهام الطبيب والحاكم هو الأمر الذي يحتاج إليه العراق»[4].

وحين يتحدث سندرسن عن زميل إنكليزي آخر، كان آمراً للسجون خلال فترة معينة، يقول عنه: «كان لين هذا من الماسونيين، وعن طريقه تم تقديمي إلى الجمعية الماسونية»[5].

بعد إقامة ليست طويلة في بغداد، وبسبب الطاعون الوافد إلى بعض مناطق العراق، فقد نُقل سندرسن إلى منطقة الحلة لمقاومة هذا المرض هناك. ولما كان مثل هذا التعيين يتطلب معرفة اللغة العربية، فقد بدأ يتلقى دروساً لتعلم هذه اللغة عن طريق معلّم يهودي موثوق به[5].

وفي الحلة كان هناك بعض شيوخ البدو الراغبين في التعاون مع القوات البريطانية وإمدادها بالمعلومات، خاصة عن تحركات الثوار. وأخذ اثنان من الشيوخ في إقامة صلة غير مباشرة مع الحاكم السياسي الجديد، «وكانت هذه الصلات تتم عن طريقي»[6]. وحين طلبت أسماء الشيوخ المتعاملين مع الثوار «زودني هؤلاء الشيوخ بالأسماء»[7]. ونتيجة ذلك وقعت معارك دامية في منطقة الحلة وما حولها، وخسر الطرفان فيها أعداداً كبيرة من القتلى والجرحى.

أما عن دور السير بيرسي كوكس، وما بذله من أجل إقامة شكل من الحكم يلائم دولة عربية فيقول سندرسن مشيداً بدور المس بيل

(4) المصدر نفسه، ص 37.
(5) المصدر نفسه، ص 49.
(6) المصدر نفسه، ص 53.
(7) المصدر نفسه، ص 77.

على وجه التحديد: «إنها واحدة من أعظم الذين نشطوا في الدعاية لتتويج الملك فيصل»[8].

بعد أن انتهت وافدة الطاعون، أُعيد سندرسن إلى بغداد وعُيّن مديراً لمستشفى العزل لمواجهة وباء الجدري. وصدف خلال هذه الفترة أن تعرّض الملك فيصل الأول لوعكة، وطلب من سندرسن أن يعوده ويشخّص حالته، وقد فعل. لكن منذ اللحظة التي التقى فيها الرجلان قامت بينهما علاقة أخذت تتوطد بمرور الأيام، وظلت هذه العلاقة إلى حين وفاة فيصل.

لقد أصبح سندرسن بعد هذا اللقاء الطبيب الخاص للملك وللعائلة المالكة، وأصبح يعامَل هو وزوجته وكأنهما من أفراد العائلة المالكة!

ورغم متانة العلاقة إلا أن سندرسن كان يحجم عن إبداء رأيه في وزراء فيصل وكبار موظفيه، وكان يحاول أن يقصر مشورته على الأمور الصحية والقضايا العامة، وما يجب أن يفعل من أجل النهوض بالدولة.

تعرّض الملك لألم مفاجئ ذات ليلة، وحين فحصه سندرسن تبين أن ما يشكو منه جلالته هو التهاب الزائدة الدودية، وأن إجراء عملية لاستئصالها ضرورة قصوى. وقد هيئت إحدى غرف القصر لإجراء العملية، ورغم الهمسات واختلاف تشخيص ما يشكو منه الملك فقد أُجريت العملية وتكللت بالنجاح.

---

(8) المصدر نفسه، ص 77.

بعد هذه العملية توثقت العلاقة أكثر من قبل بين الملك وسندرسن، ومن خلال الموقع الذي يحتله هذا الطبيب تكونت له علاقات، واطلع على الكثير من الأسرار والخفايا، كما أن هذا القرب اليومي من مركزي القرار: الملك وبيرسي كوكس، مكّنه أن يقوم بمهمات خطيرة.

لم تطل إقامة بيرسي كوكس كمندوب سامٍ، إذ حل مكانه في هذا الموقع هنري دوبس. ورغم المظهر الناعمِ واللطيف للمندوب السامي الجديد، إلا أنه كان يتميز بالعصبية وسرعة الإثارة والتهيج، أو كما يقول سندرسن: «كان يضرب موظفيه بقناني الحبر كدليل على عدم رضاه، ولا ازال أتذكر إحدى المناسبات عندما ألقى بأصص الزرع وبما تحويه على الأرض»[9]. وقالت زوجة دوبس تعليقاً على هذا الحادث: «حسناً فعلت يا هنري وإلا ما الفائدة من كونك المندوب السامي إذا كنت لا تستطيع أن تحطم قلة من أصص الأزهار في الوقت الحاضر وفيما بعد؟»[10]

ومع أن عملية الزائدة الدودية حسّنت من وضع الملك بعض الشيء، إلا أن الضعف العام والهزال كانا باديين عليه، ولم تُظهِر الفحوص الطبية أية اختلالات جسدية. كما أن تجاوبه مع العلاج في أول زيارة لإنكلترا كانت مخيبة للآمال. والأرجح أن يكون السبب المباشر لهذا الضعف هو إفراطه في التدخين وشرب القهوة. وربما يكون أصل المرض عصبياً.

---

(9) المصدر نفسه، ص 95.

(10) المصدر نفسه، ص 95.

في هذه الزيارة إلى لندن أقامت المس بيل حفلاً كبيراً للملك فيصل، وقد دعت إليه علية القوم. وكانت الصحافة البريطانية قد أشارت أثناء هذه الزيارة إلى احتمال إجلاء القوات البريطانية عن العراق. أما المستر ايمري، وزير المستعمرات، فقد نفى بالمطلق احتمالاً مثل هذا، وأكد أن بريطانيا لا تنوي الجلاء عن العراق. أكثر من ذلك، أبلغ وزير المستعمرات الملك أن عصبة الأمم ستقبل العراق في عضويتها. هذان الأمران أفرحا الملك وجعلاه يبدي سروره أمام الكثيرين!

ورغم أن النظام الملكي في العراق استقر وأخذ صيغة ثابتة، فإن ذيول العلاقة بين بريطانيا والعراق كانت تقتضي المناقشة للوصول إلى التسوية، وهذا ما حاولته بريطانيا في هذه المرحلة مستغلة مشكلة الموصل والمعاهدة واتفاقية النفط.

ومع أن جون فيلبي يُعتبر أحد رموز المرحلة السابقة، وكان رأيه يختلف عن معظم زملائه الإنكليز، إذ كان يميل إلى النظام الجمهوري، وله موقف سلبي تجاه الهاشميين، فإن لورنس ظهر مجدداً في هذه الفترة، وكان قريباً من فيصل أثناء زيارته إلى لندن.

ونظراً لوقوع الخلاف مع الحسين بن علي فقد نفاه الإنكليز إلى قبرص. أما في طريق عودته إلى العراق فقد توقف فيصل في عمان وأراد زيارة أبيه، وحين اصطحب معه أخاه علياً وسندرسن وذهبوا إلى قبرص، فقد تراءى للأب أن الضيف الذي يرافق ولديه هو فيلبي، فثارت ثائرته وأراد أن يطرده، لكن تدخُّل فيصل حال دون ذلك، إذ أكد لأبيه أن هذا الضيف هو سندرسن وسبق أن زاره،

الحسين بن علي

وحين سأل الأب عن فيلبي قيل له إنه مات، فردّ الحسين وقد عاد إليه السرور: الحمد لله![11]

ومن جملة ما وقع في هذه الزيارة إلى عمان أن مَرِض الملك علي، فأعطاه الأمير عبد الله دواء تعوّد استعماله، وهو لفتح الشهية ومعالجة ألم المعدة، وحين رأى سندرسن الدواء تبين له أنه مسكر، ولما أبلغ الأمير عبد الله قام الأخير بإتلاف كل ما لديه من مخزون هذا الدواء، وأمام عدد من الناس مستغفراً ربه عن هذا الذنب!

(11) المصدر نفسه، ص 161.

يقول سندرسن عن المظاهرات التي كانت تقوم في بغداد احتجاجاً على قوات الحلفاء، وتنديداً بالمعاهدة أو الاتفاقيات الأخرى المجحفة بحق العراق: «لقد شهدت مثل هذه المسيرات الغوغائية في شارع الرشيد» «ومن الطريقة الاعتيادية في التظاهرات يكون المشاركون عديمي الأهمية، ومن حثالة جمهرة بغداد الذين يثيرهم محرضون محترفون تحت ستار وعدهم بالبخشيش.»[12] وإذا كانت مهمات سندرسن خلال حكم فيصل الأول ترتيب أوضاعه وكسب ثقة الآخرين والنفاذ إلى مواقع مهمة، فإن دوره في المرحلة الثانية أن يشارك في صنع السياسة متخفياً وراء ملابسه الطبية، ولذلك توثقت علاقاته مع نوري السعيد ومع الملكة عالية زوجة الملك غازي، ومن هنا يبرز دوره، كما أشرنا من قبل، في صناعة صيغة الحكم الجديدة، أولاً بتغييب غازي ثم اختيار عبد الإلّه وصياً على عرش الملك فيصل الثاني.

إن النساء في الشرق يلعبن أدواراً هامة في السياسة وفي صناعة التاريخ، يفعلن ذلك من وراء ستار وبكثير من المكر والبراعة، وهذا ما أدركه سندرسن في وقت مبكر، حين أصبح أحد أفراد العائلة المالكة، وأخذ يوكر في مخادع النساء، خاصة الملكة والملكة الأم، وبحجة المعالجة كان يؤتى به في أية ساعة من ساعات الليل والنهار، ويتم التداول معه وتكليفه بالرسائل ينقلها من طرف إلى آخر. كان يفعل ذلك دون جلبة ودون أن يثير الشكوك.

وباعتبار أن العراق، في هذه المرحلة، في بداية تكوينه

(12) المصدر نفسه، ص 215.

السياسي، فقد لعب سندرسن، وبِصمْت، دوراً مميزاً في قبول المعاهدة الأولى، ثم في اتفاقية الموصل، وفي تقديم بعض الرجال وتأخير غيرهم، من أجل تكوين طاقم سياسي أكثر طواعية وأكثر ارتباطاً بإنكلترا. ومن الأمور المعروفة في هذه المنطقة أن المستشارين هم الذين يصنعون القرارات وأن الرؤساء هم الذين يوقعون عليها، ولذلك فإن قربه البالغ من مركزي القرار، كما أشرنا تواً، جعله يلعب دوراً يتجاوز دور ساعي البريد، إذ إن بعض القرارات، لدقتها وحساسيتها، تتطلب إخراجاً متقناً وهادئاً، وهذا ما كان يتولاه سندرسن على وجه التحديد، مما جعل الأمور تأخذ هذه النعومة في إخراجها وتظهيرها.

وإذا كان غازي قد شكل نتوءا في تضاريس السياسة البريطانية في العراق، وخلق، ولو مؤقتاً، بعض المتاعب، فإن ضرورة التخلص منه والإتيان بشخص أكثر طواعية، اقتضت تدبير صيغة لإنجاز هذه المهمة دون أن تلفت النظر وبأقل قدر من الضوضاء. وهكذا ترتب موضوع قتله بالطريقة التي قتل بها، ثم التخلص من آثار الجريمة بهدوء وبأسرع وقت ممكن.

ورغم أن عامة الناس بحسّهم العفوي أدركت أن عبد الإلّه ونوري السعيد وراء مقتل الملك غازي، فإن هذه الجماهير حدست بالدور الذي قام به سندرسن، وبالتالي كان موضع إدانة. ومع أنه يعفي نفسه، في المذكرات التي كتبها، من أية مسؤولية، بل ويفضح دور عالية وهي تطلب منه الإفادة أنه سمع الملك في لحظة النزع الأخير يوصي أن يكون عبد الإلّه وصياً على العرش، لكنه، أي سندرسن، أبى القيام بهذه المهمة القذرة، ليس تعففاً وإنما لأن

حالة الوفاة كانت قائمة ومؤكدة، سواء ساعة وصوله لإسعاف الجريح، أو لطبيعة الإصابة، والتي وصفها أحد الذين رأوا الاصابة في مؤخرة الجمجمة «ان قبضة اليد تدخل في قحف الرأس» وبالتالي لا تترك فرصة، ولو ضئيلة، لمن يكون في مثل هذه الحالة أن يدلي بوصية.

أما المهمات اللاحقة التي قام بها سندرسن، وهو يولي كل عنايته لعبد الإلّه، فكان المقصود أن يصنع طاقماً حاكماً منسجماً ومضموناً، وهذا ما جعل العلاقة بين الاثنين تتوثق، وما جعل عبد الإلّه يعتمد بشكل متزايد على سندرسن، سواء في المشورة أو في العلاقة مع السفارة البريطانية أو مع لندن، وبالتالي يفسر المرات الكثيرة التي كان يسافر خلالها وينقل رسائل بالغة الحساسية والدقة، خاصة أثناء الحرب العالمية الثانية.

حول ذلك يقول في أحد فصول مذكراته: إنه عندما أُعلنت الحرب العالمية على ألمانيا في شهر أيلول 1939 «من حسن الحظ أن الذي كان يتولى رئاسة وزراء العراق آنذاك هو نوري السعيد»، ويضيف سندرسن واصفاً نوري السعيد «انه أقدر رجل دولة في الشرق الأوسط، وصديق معجب بالأرض التي تنبت الرجال الأحرار». ونظراً لوجود نوري في ذلك الموقع في ذلك الوقت فقد حال دون نجاح ثورة رشيد عالي. صحيح أن هذه الثورة سيطرت خلال فترة شهرين تقريباً، واضطر نوري إلى الهرب، إلا أنه استطاع تأليب الخصوم على رشيد عالي، واستطاع أيضاً أن يحمل بريطانيا على استعمال السلاح لإنهاء هذه الثورة، وحال بالتالي دون وصول ألمانيا إلى قلب منطقة الشرق الأوسط. والذي كان من شأنه لو

حصل أن يغير في موازين القوى، وتالياً ربما يغيّر في موازين الحرب واحتمالاتها.

وإذا كان هناك مقدار كبير وزائد من الثرثرة في مذكرات سندرسن، فإن القصد إخفاء الدور الحقيقي، أو محاولة الظهور بمظهر البريء الذي وصل إلى العراق امتثالاً للواجب وللقيام بعمل إنساني، ويبذل سندرسن على مدار الصفحات جهداً واضحاً لإخفاء مهمته الحقيقية، أو يعطيها صفات مموهة، علماً بأن الرجل انتدب، ومنذ البداية، لهذا البلد ولهذا الدور، وهناك إشارات غير مباشرة تؤكد ذلك، خاصة وأن إقامته طالت، وفي أوقات شديدة الحساسية: أعقاب الحرب العالمية الاولى، وترتيب المنطقة وفقاً لمصالح بريطانيا، ثم فترة الحرب العالمية الثانية وما تخللها من مد وجزر، وضرورة حماية مؤخرة جيوش الحلفاء بشكل يؤمّن الانتصار في الحرب.

لقد بقي سندرسن في العراق ما يزيد على ربع قرن، وهي مدّة لم يشاركه بطولها سوى فيلبي، في السعودية. وهذا ما مكنه من الاطلاع عن كثب على جميع التطورات والمؤمرات التي حصلت في هذا البلد، خاصة وأنه أتقن اللغة العربية، وخلف ردائه الطبي كان بإمكانه أن يصل إلى أي مكان، وحين لا يكفي الرداء الطبي أو السماعة الطبية، كان يتحول إلى صياد لكي يجول في البوادي والمستنقعات ويتعرف على قضايا وبشر لا يتاح له أن يراهم وهو وراء مكتبه في بغداد.

مُنح سندرسن لقب باشا تقديراً لدوره ولخدماته، وكان وثيق الصلة بالأسرة الهاشمية على تعدد فروعها، في العراق والأردن.

ومن جملة الأمور الفولكلورية التي حاول أن يتوشح بها أن سمى مذكراته: عشرة آلاف ليلة وليلة، وهي مجموع المدة التي قضاها في العراق. كتب المذكرات بعد مغادرته العراق ليكون أكثر تحرراً من عيون الأصدقاء الذين تعرّف عليهم في العراق، وبالتالي ليقول الأشياء التي يريدها فقط وبالطريقة التي يراها مناسبة.

إن رجال بريطانيا الحقيقيين لم يكونوا، فقط، أولئك الذين يعملون في السفارات وتحت عناوين محددة، وإنما أولئك الذين جاؤوا بأردية الرهبان، وقبعات رجال الآثار، وتحت أسماء وعناوين لا تخطر بالبال أن يكونوا بعملهم الرئيسي مجرد جواسيس، وأن الأعمال الأخرى التي يمارسونها هوايات أو أغطية يلتحفون بها في مواجهة مجتمع يعطي ثقته للآخرين بسهولة.

عبد الإله
الوصي على عرش العراق

الأمير عبد الإلّه مع الملك فيصل الثاني: وصاية ملتبسة

يُعتبر الملك علي ابن الشريف حسين آخر الملوك الهاشميين في حكم الحجاز، وبهزيمته أمام ابن سعود انتهى الحكم الهاشمي هناك، وانتهى أفراد هذه الأسرة إلى البحث عن ممالك يحكمونها أو عن منافٍ ليعيشوا فيها.

وإذا كان اثنان من أبناء الحسين، هما عبد الله وفيصل، قد تعلّما وصقلتهما التجارب، بما في ذلك تجربتهما حين أصبحا نائبين عن الحجاز في مجلس المبعوثان، والفترة الطويلة التي عاشاها في استنبول، فإن الملك علي كان متواضع التعليم، قليل الأسفار والاحتكاك بالآخرين، وظل يعيش في رحاب أبيه وتحت ظلاله.

كان للملك علي ولد واحد هو عبد الإلّه، وكان له أربع بنات إحداهن الملكة عالية التي تزوجت الملك غازي وأنجبت له ولي عهده فيصل الثاني.

يقول الذين أرّخوا للأمير عبد الإلّه إنه لم ينتظم في سلك التعليم، ورغم أنه قضى بضع سنوات في مدارس داخلية بمصر وإنكلترا إلا أنه لم يواصل دراسته، وبالتالي لم يحصل على مؤهلات علمية. عاش في كنف جديه لأبيه وأمه، وكان ميالاً إلى العزلة

والانطواء وتعلق منذ وقت مبكر بالخيل. وباعتبار أنه تربى في جو غالبيته من النساء، فقد اكتسب بعض صفاتهن، وانعكس ذلك على سلوكه وتصرفاته، ويصل الأمر ببعض من الذين كتبوا سيرته إلى الإشارة أنه كان أقرب إلى التخنث!

حين طرح موضوع زواج غازي، ورشحت أخته عالية لتكون العروس، رافقها الأمير عبد الإلّه من استنبول إلى بغداد، ورغم أنه أصبح صهر الملك، علاوة على كونه ابن عمه، إلا أن العلاقات بين الاثنين، غازي وعبد الإلّه، ظلت أقرب إلى البرود الذي يصل حدود الجفاء، هذا عدا أنه لم يسند إليه عمل رسمي حقيقي، إذ سمي موظفاً في الخارجية إلا أنه لم يمارس عملاً فعلياً. ونظراً لصفاته الشخصية فقد بقي لفترة طويلة في الظل ومع الخيل، ولم يخرج من هذا الجو إلا ببطء وبتحريض من أخته عالية، إذ كان وثيق الصلة بها ويكاشفها بالكثير مما يجول في خاطره.

تزوج عبد الإلّه، لأول مرة، قبل أن يصبح وصياً على العرش، وكانت هذه الزوجة مصرية جميلة وذات تربية حديثة، الأمر الذي لم يرق أغلب العائلة المالكة، خاصة الأم الوالدة، وحين أصبح وصياً على الملك فيصل أحب فتاة من عائلة الحيدري، ووقعت في هذه الأثناء ثورة رشيد عالي في أيار 1941، فأعطى عبد الإلّه عهداً لهذه الحبيبة أن يعلق أربعة من رجال هذه الثورة عند بوابة وزارة الدفاع، وكانت الحبيبة تطالبه أن يعجّل بالوفاء بالعهد!

وظل عبد الإلّه دون زواج فترة طويلة، مع أن علاقاته زادت واتسعت مع نساء من جنسيات متعددة. ويرى طه الهاشمي أن

محاولات عديدة بُذلت من أجل تزويجه واحدة من أخوات الملك فاروق، ملك مصر، لكن هذه المحاولات لم تثمر، إلى أن تزوج من هيام ابنة أمير ربيعة، وكانت من القلائل الذين نجوا من مذبحة قصر الرحاب في تموز 1958.

أشرنا إلى الجفاء في العلاقة بين غازي وعبد الإلّه، ولعل جزءاً من هذا الجفاء يعود إلى طبيعة العلاقة بين الملك وزوجته، الأمر الذي انعكس على علاقة الرجلين، خاصة وأن عبد الإلّه يكنّ لأخته حباً استثنائياً. ولقد لعب هذا العامل دوراً هاماً أولاً في اغتيال الملك غازي، وقد اشترك في هذا الاغتيال ثلاثة: نوري السعيد والملكة عالية والأمير عبد الإلّه، عن طريق وضع الخطة واختيار عناصر التنفيذ وتغطية آثار الجريمة. وثانياً في اختيار عبد الإلّه وصياً على العرش، اعتماداً على شهادات ملفقة من الملكة عالية والأميرة راجحة أخت الملك[1]، إذ ادعت الاثنتان أن غازي أوصى أمامهما أن يكون عبد الإلّه وصياً على العرش وأن يرعى فيصل إلى حين بلوغه سن الرشد وتولّي المُلك. وكانت الوزارة جاهزة لسماع هذه

---

(1) من الضروري لفت النظر هنا إلى أن معظم الأطراف التي شاركت في اغتيال الملك غازي، أو سهلت هذه المهمة أو غطتها بعد أن تمّت، لها مصلحة في عملية الاغتيال، خاصة من الرجال. أما الأمر غير المفهوم أو غير المبرر حتى الآن، فهو الشاهدة الأميرة راجحة التي سمعت أخاها، كما تدعي، أنه أوصى للأمير عبد الإلّه بالوصاية على ابنه القاصر!
إن متابعة هذا الخيط في عملية الاغتيال، رغم الصعوبة لبعد الزمن وغياب أغلب الشهود، ربما يكشف عن جانب غير مرئي في هذه العملية، وقد يعطيها مساراً مختلفاً عما هو سائد حتى الآن في كتابات المؤرخين والمعلقين السياسيين.

الشهادة والأخذ بها[2]، وبالتالي سرعة تسمية عبد الإلّه في هذا المنصب، وأدائه اليمين الدستورية، وكان إلى ذلك الوقت لم يكتسب الجنسية العراقية. هذا عدا عن وجود مرشحين آخرين لهذا المنصب، إذ كان الأمير عبد الله، أمير شرق الأردن، لكن قيل في حيثيات استبعاده إنه مشغول بشؤون الحكم في الأردن. أما الشخص الآخر الذي رشح، وكان ذا شخصية قوية وتجربة واسعة فهو الأمير زيد بن الحسين، عم الملك القتيل، والذي كان ينوب عن أخيه فيصل الأول في بعض المهمات ولبعض الوقت، مما يدل على الكفاءة والثقة معاً، لكن نوري السعيد يعترض على هذا الترشيح، بحجة أن زوجة الأمير زيد تركية، الأمر الذي لا يحسن أن يعيش الملك الصغير في كنفها!

وهكذا، وبترتيب متقن وسريع، أمكن تسمية عبد الإلّه وصياً على عرش فيصل الثاني. وإذا كان لمثل هذا الاختيار أسبابه ومبرراته بالنسبة للذين رتبوا هذه المؤامرة، إذ كانت عالية حاقدة على زوجها، لأنه أُكره على الزواج بها، في الوقت الذي كان يميل إلى

---

(2) من الأمور التي جرت بصورة استثنائية: تأخر الأطباء، خاصة سندرسن في الحضور لإسعاف الملك، إذ ترك لينزف بحيث إنه فارق الحياة عندما حضر الأطباء. والأمر الآخر المعاكس هو أن الأطباء الخمسة الذين وقّعوا شهادة الوفاة فعلوا ذلك بسرعة خارقة لكي تطوى هذه القضية ويسدل الستار على كم كبير من التفاصيل.
ولابد من الإشارة أيضاً إلى أن الملكة عالية كانت رابطة الجأش حين جيء بزوجها وهو أقرب إلى الموت منه إلى الحياة، وطلبت من الدكتور سندرسن أن يزرقه إبرة إنعاش علّه يفيق للحظات ويُنتزَع منه اعتراف بتسمية عبد الإلّه وصياً على العرش!

نعمت ابنة ياسين الهاشمي؛ ولأن عبد الإلّه كان طامحاً لأن يكون الرجل الأول في العراق، فإن لنوري مصلحة لا تخفى، وهي أن يكون ذا دالة ونفوذ على شريكيه الآخرين، عالية وعبد الإلّه، باعتباره الأقوى والأكثر نفوذاً وعلاقاته في السياسة العراقية واسعة ومتشعبة.

ما إن انتهت مراسيم تسمية عبد الإلّه وصياً على عرش العراق، حتى بدأ الدور الكبير والخطير للعراق ولعبد الإلّه، خاصة وأن العالم كان يمر في مرحلة صعبة وهو يستعد لخوض غمار الحرب العالمية الثانية، مع ما تتطلبه من تحالفات ومعاهدات لتسهيل وجود القوات الأجنبية أو مرورها إلى ساحات القتال. وكان العراق ضمن الدول التي جرى عليها وحولها النزاع بين دول الحلفاء ودول المحور، نظراً لأهمية موقعه الجغرافي كونه عقدة المواصلات بين آسيا، خاصة الهند، وأوروبا. يضاف إلى ذلك كونه الجار الأقرب إلى إيران وتركيا وما تتمتع به هاتان الدولتان من موقع ودور، وبالتالي تنافس المعسكرين على أن يكون لكل منهما تواجد فيهما. أما العامل الثالث الهام فهو وجود مخزون نفطيّ كبير، وبالتالي من يضع يده على هذه الثروة يكون في موقع أقوى من الآخر.

قدّر عبد الإلّه غريزياً، وعن طريق بطانته المرتبطة بالإنكليز، أن من يتحالف مع بريطانيا، ومن تُقدّره بريطانيا أكثر من غيره سوف يحظى بالموقع الأقوى والأهم. وهكذا بدأ الصراع منذ وقت مبكر بين نوري السعيد وعبد الإلّه على احتلال المركز الأول. وبهذه الطريقة انصرفت اهتمامات عبد الإلّه إلى ترتيب علاقات مع الجيش، وإلى محاولة كسب المؤيدين والأنصار في المؤسسة العسكرية.

ورغم أن الإنكليز بذلوا جهداً استثنائياً في دعمه، إلا أن رجلهم الأول بقي نوري السعيد، نظراً لكفاءاته المتعددة وتجاربه الواسعة، ولذلك لجأ الإنكليز إلى الموازنة في العلاقة بين الاثنين.

نوري السعيد: رجل الإنكليز الأول

ولأن نوري أدرك قوة المؤسسة العسكرية، خاصة القادة الذين يمسكون بزمام الأمور، أو ما يطلق عليهم المربع الذهبي، واتضح ذلك منذ أن تمّت تصفية بكر صدقي وأنصاره في الجيش. فإن نوري بذل جهداً فائقاً لتقوية علاقاته وتحالفاته مع المؤسسة العسكرية

خاصة بعد أن أصبح لهذه المؤسسة دور سياسي في اختيار رئيس الوزراء أو سحب الثقة منه.

كانت نظرة عبد الإلّه إلى الإنكليز كلها إعجاب وتقدير، وكان مستعداً للامتثال لكل ما يطلبون، ومع أنهم تخلوا عن وعودهم للهاشميين وخدعوهم، فإن الإنكليز استمروا يفرضون رأيهم على معظم الساسة العراقيين، وكان عبد الإلّه واحداً من هؤلاء، إذ كان يردد بفخر ومباهاة أنه غير قادر على التخلي عن الإنكليز، لأنهم وحدهم الذين يقدرون على حمايته ورد خصومه عنه، خاصة بعد أن انكشف دوره في تصفية الملك غازي، وبداية ارتقائه درجات السلم نحو الموقع الأول في السلطة.

وإذا كان الإنكليز هم الذين تبنّوا عبد الإلّه وجعلوه وصياً على عرش العراق، فإن نظرتهم إلى نوري السعيد لم تتغير من البداية إلى النهاية. فالمس بيل، سكرتيرة المندوب السامي، حين التقت نوري السعيد أول مرة عام 1921 كتبت تقول: «في اللحظة التي رأيته فيها أدركت بأن أمامنا قوة متينة مرنة، فإما أن نستعملها أو نشغل أنفسنا بخصومات صعبة معه[3]. وهكذا أصبح مصير نوري السعيد والإنكليز واحداً، وتشابكت العلاقات وتنوعت إلى أقصى حد، بحيث تعتبر المرحلة التي سبقت 14 تموز 1958 مطبوعة أغلب الوقت بطابع الثلاثي الدائم: السفير البريطاني في بغداد ونوري السعيد السياسي المخضرم، ثم عبد الإلّه، مع تفاوت في أهميته وأدواره تبعاً للمرحلة الزمنية.

---

(3) طارق الناصري، عبد الإلّه الوصي على عرش العراق 1939-1958، حياته ودوره السياسي.

لكن ما تجدر الإشارة إليه أثناء إعداد عبد الإلّه لاحتلال موقع متقدم في هذا الثلاثي: توثيق العلاقة بين عبد الإلّه والمربع الذهبي؛ ثم الاستعانة بالإعلام، خاصة الصحافة السيارة، من أجل إعادة رسم صورة عبد الإلّه بحيث تبدو مقبولة بالنسبة للرأي العام العراقي أولاً ثم العربي؛ كما قام خلال هذه المرحلة بفك العزلة عن نفسه والقيام بزيارات متعددة سواء للعتبات المقدسة أو للألوية العراقية والاتصال بالجماهير.

وحين أُعلنت الحرب العالمية الثانية تحركت الأمور بسرعة أكبر من السابق، وأعلن الوصي قطع العلاقات مع ألمانيا وأكد التزامه بالمعاهدة العراقية- البريطانية نصاً وروحاً، أما نوري السعيد فقد دعم الاحتكارات البريطانية لاستغلال خيرات العراق، وقصر التعاون مع الإنكليز فقط، أما الألمان الموجودون في العراق فقد قام نوري بتسليمهم كأسرى حرب. وحين خطت السفارة البريطانية خطوة إضافية إلى الأمام، وطلبت أن تقطع العلاقات مع إيطاليا أيضاً، كان رد الفعل رافضاً وعصبياً، إذ رفض الكيلاني الامتثال لهذا الطلب.

كان موقف المحور تجاه الحكومة العراقية ودياً، مما انعكس إيجاباً على العلاقات الألمانية - العربية، والإيطالية - العربية، الأمر الذي أثار السفارة البريطانية في بغداد ودفع أتباع الإنكليز إلى إعلان معارضتهم لهذه السياسة، وتمثل الغضب كأشد ما يكون في موقف الوصي ونوري السعيد. وأخذت السفارة البريطانية تصعّد من مطالبها، إذ بالإضافة إلى المطالبة بقطع العلاقات الإيطالية - العراقية، طالبت الحكومة العراقية باستخدام الأراضي العراقية لإيصال الجنود إلى أماكن أخرى في المنطقة، وببناء مجموعة من

المطارات والقواعد العسكرية لخدمة هذه القوات. وحين لم تستجب الحكومة العراقية طالبت بريطانيا بإقالة وزارة رشيد عالي الكيلاني.

وتأزمت العلاقات العراقية - البريطانية، وشاركت الولايات المتحدة بريطانيا في تصعيد الموقف المعادي. أما على المستوى الداخلي فقد لجأت الدولتان إلى الحصار والمقاطعة، مما ولّد مصاعب للحكومة العراقية، وخاصة أن هذا ترافق مع امتناع بريطانيا عن تزويد الجيش العراقي بالأسلحة والذخيرة واللوازم العسكرية الأخرى. كما أدت هذه الصعوبات إلى عرقلة عمل الحكومة، وإلى رغبة عدد من أعضائها في الاستقالة.

يقول سندرسن في رواية ما حدث: «استدعيت مرة أخرى إلى قصر الرحاب في عصر أحد الأيام من أواخر شهر كانون الثاني 1941، فأبلغني الوصي أن رشيد عالي في طريقه إلى القصر لكي يطلب حل مجلس النواب، وبعد المناقشة توصلنا إلى نتيجة مؤداها أن أفضل حل أن يسافر الوصي بالسيارة».

وصل الوصي إلى الديوانية ليكون في حمى قائد الفرقة، الراوي، وليقنعه أن يضع فرقته وتفرعاتها في الإنذار، فحاول الراوي أن يثنيه عن هذه الفكرة، وأعلن أنه لا يريد أن يقسم الجيش أو أن تصطدم قواته فيما بينها. وبعد أخذٍ وردٍّ استقالت وزارة رشيد عالي الكيلاني وانتهت الأزمة، وجرى احتفال متواضع بعودة الوصي إلى بغداد.

الهروب الثاني للوصي:

لم تمض بضعة أسابيع على عودة الوصي إلا وأخذ الجو يتلبد مرة أخرى، إذ أخذت العلاقات تسوء بين الوصي وقادة الجيش،

خاصة المربع الذهبي، وبدا أن الفترة التي يمر بها الفريقان عبارة عن مجرد هدنة، فقد أخذ كل فريق يرتب أموره وعلاقاته انتظاراً للوقت المناسب لكي ينقض على الفريق الآخر.

في إحدى الليالي من شهر نيسان 1941، وأثناء انتقال إحدى سيارات القصر من قصر الزهور إلى قصر الرحاب، لاحظ سائقها وجود سيارات عسكرية تطوق القصر، وقد أمر هذا السائق أن يعود لفوره من حيث أتى. وما كاد السائق يعود ويبلِّغ، وتصل هذه المعلومات إلى الأمير عبد الإلّه حتى تحسّب إلى أقصى حد، وتأكد أن خصومه يطلبون رأسه، مما جعله يغادر القصر بسرعة فائقة إلى دار عمّته صالحة في الطرف الآخر من المدينة، في شارع أبي نواس، ومن هناك تم الاتصال بسندرسن باشا لكي يساعده على إيجاد مخرج. يقول سائق الوصي إن الوصي غادر قصره بملابس نسائية، عباءة تستر ملابس النوم وبرقع يغطي الوجه، وإنه اخترق عدداً من الحواجز وهو في طريقه إلى بيت عمّته، في الوقت الذي يؤكد فيه قادة الجيش أنه لم يكن في نيتهم إلقاء القبض على الوصي، ولو أرادوا ذلك فقد كان الأمر سهلاً. أما عن اختراق الحواجز وتخطي نقاط التفتيش والحراسة فإنه مجرد وهم لادعاء البطولة. كل ما كان يهدف إليه الضباط القادة هو تغيير صيغة الوصاية، بحيث توكل الوصاية إلى هيئة، الوصي واحد من أفرادها، وليس الوحيد.

المهم أن سندرسن رتب موضوع انتقال الوصي إلى الحبانية عن طريق الاتفاق مع الوزيرالمفوض الأميركي الذي كان ينوي الانتقال في اليوم التالي إلى الحبانية لتحية السفير البريطاني الجديد،

كورنواليس. وقد تم الاتفاق على أن ينتقل عبد الإلّه من دار عمّته إلى بيت الوزير الأميركي نابنشو، وهكذا اتخذت الترتيبات لهذا الانتقال الذي تم عبر تخفّي الوصي في عباءة نسائية.

طه الهاشمي

واستمرت الأمور تتأزم بين أطراف الصراع، وأصبحت الفجوات الدستورية حاجزاً دون اتخاذ الإجراءات لكي تواصل الدولة مسيرتها. إذ بعد استقالة طه الهاشمي من رئاسة الوزارة، لم يستطع رشيد عالي تشكيل وزارة جديدة لغياب رئيس الدولة أو من يقوم مقامه. ترافق هذا مع حشد قوات بريطانية جيء بها من الهند بناء

لتوصية السفير البريطاني في بغداد وموافقة تشرشل، وكانت الحجة أن هذه القوات تبغي المرور عبر الأراضي العراقية إلى فلسطين، وبعد أخذٍ وردٍّ وافق رشيد عالي، لكن السفارة البريطانية طلبت السماح لقوات أخرى، وطالبت أيضاً أن يسمح لها ببناء بعض المطارات وإشادة المعسكرات، لكن الحكومة برئاسة رشيد عالي التي تشكلت بعد عزل عبد الإلّه وتسمية الشريف شرف وصياً مكانه لم توافق على نزول القوات الجديدة قبل مغادرة القوات التي سبقتها، كما لم توافق على إقامة معسكرات أو مطارات عدا تلك التي نصّت عليها المعاهدة. وهكذا أخذت تتراكم المصاعب والمشاكل بحيث بدا واضحاً أن الصدام بين الطرفين لا بد واقع.

ولم تمر أيام قليلة من أيار 1941 إلا ووقعت الحرب في الحبانية ثم امتدت إلى المناطق المحيطة بها وصولاً إلى بغداد. وكما أشرنا ونحن نستعرض مسيرة رشيد عالي الكيلاني، لم تستطع القوات العراقية الصمود طويلاً، نظراً لأن الطيران لعب دوراً أساسياً في تشتيت الجيش وتدمير قواته، ثم تدخلت القوات البرية بما فيها قوات غلوب باشا، والمؤلفة من قوات البادية وقوات الحدود، وألحقت بالجيش العراقي هزيمة كاملة. أما القوات الألمانية التي كان ينتظر منها العون فقد تأخرت في المشاركة أولاً وكانت مشاركتها محدودة، بحيث لم تؤثر على النتائج، وهرب قادة الثورة إلى الدول المجاورة، خاصة إلى إيران، وعاد عبد الإلّه إلى بغداد في مطلع حزيران 1941 ليبدأ سلسلة من أعمال الانتقام والثأر، وتعتبر هذه الفترة من أصعب الفترات التي مرت على العراق، إذ جرت خلالها إعادة تشكيل الدولة، واستبعاد جميع الخصوم والمخالفين.

جميل المدفعي

لقد شكل المدفعي أول وزارة في «العهد» الجديد، وبالاتفاق مع الوصي والسفارة البريطانية انصب الانتقام على الجيش، فسرح عدد كبير من أفراده، خاصة الضباط، وامتلأت السجون والمنافي الصحراوية بالمعتقلين، وحين ضاقت بهم اتخذت المساجد أمكنة للتوقيف، كما سرح عدد كبير من موظفي الدولة، وبدأت عمليات تحقيق واسعة تمهيداً لإجراء المحاكمات، وعاش العراق خلال تلك الفترة حالة من الضيق والخوف. ومن اللافت، ونتيجة النفسية الحاقدة، كان الوصي بنفسه يزور السجون والمعتقلات ويستجوب المتهمين والموقوفين. كان يفعل ذلك بطريقة أقرب إلى السخرية والإهانة. وحين استدعي الشريف شرف إلى القصر لسؤاله، وكانت الملكة عالية موجودة آنذاك، وجهت إليه كلمات نابية من الملكة ومن الوصي.

بإيجاز، كان يراد تحويل الجيش إلى قوة استعراضية، وإلى أداة لقمع التمردات الداخلية.

ورغم الانسجام الظاهري بين نوري والوصي، واتفاقهما على تحقيق هذه السياسة، إلا أن التنافس بينهما لم يهدأ يوماً واحداً، وكان كل منهما يطمح لاحتلال الموقع الأول والحظوة المتقدمة لدى الإنكليز.

وفي بعض المحطات اللاحقة سوف نتبين أكثر سياسة ومواقف عبد الإلّه على عرش العراق.

مكتبة
t.me/t_pdf

حركة رشيد عالي الكيلاني

خلا الجو لنوري السعيد بغياب ياسين الهاشمي، وما عدا بضعة أشخاص جاؤوا لرئاسة الوزراء، وكان ذلك حلاً حين يختلف الزعماء المكرسون، ولفترات محدودة، فقد قرر نوري هذه المرة، وبدعم من الإنكليز، أن يبقى في الرئاسة لأطول فترة ممكنة، وأن يضع حداً لتساقط الوزارات السريع، لأن استمرار الطريقة السابقة من شأنه إلغاء الفروق بين رئيس وآخر، بين رئيس قوي وآخر جاء فقط لتسيير الأمور، خاصة وأن عدداً من الوزراء الذين صنعهم نوري تخلّوا عنه وتنكّروا له حين هبّت العواصف.

في عام 1930 تم التوصل إلى تسوية نهائية للعلاقات البريطانية - العراقية، فقد وقّع المعاهدة المعتمد البريطاني ونوري السعيد، وصفة الأخير أنه وزير للخارجية، وتضمن أحد بنود المعاهدة تحالفاً بين الطرفين لمدة خمس وعشرين سنة، وأكدت بريطانيا في هذه المعاهدة دعم ترشيح العراق لدخول عصبة الأمم. لكن ضمن البنود أيضاً مزايا عديدة لبريطانيا، مما ولد استياءً واسعاً لدى الرأي العام والأحزاب السياسية ولدى السياسيين المناوئين لنوري السعيد. وإذا كان ياسين الهاشمي تزعم قيادة المعارضين لهذه المعاهدة، فإن غيابه شكّل ثغرة في موقف المعارضة، وشجع نوري على التخلص من

كافة المعارضين، وكان في مقدمة هؤلاء رشيد عالي الكيلاني، الذي استعان لتعزيز موقفه بالمثقفين والليبراليين وبعدد من زعماء العشائر. ولما كانت هذه القوى مجتمعة لا تزال ضعيفة، ولأن للجيش حضوراً مميزاً في الحياة السياسية، خاصة بعد أن قام بكر صدقي بقمع ثورة الآثوريين ثم القبائل في الفرات الأوسط، وأخيراً بعد أن قام بانقلابه، فقد أدى ذلك كله لأن يصبح الجيش، خاصة قادته، شديدي الحضور.

أصبح الجيش بعد غياب فيصل الأول قوة أساسية، وفي المجال السياسي تحديداً، ولعل من جملة الأسباب التي دفعت الجيش للواجهة: هشاشة الطبقة السياسية الحاكمة؛ واقتصار المناصب السياسية على فئة محدودة هي امتداد للطبقة الحاكمة؛ التآكل السريع للطبقة السياسية والبحث عن بدائل.

وباعتبار أن الجيش دخل تيار العمل السياسي، فقد أصبح قادته من المؤثرين في المناخ السياسي العام. ولعل من أبرز هؤلاء ما أُطلق عليهم المربع الذهبي، وأغلبهم قادة للفرق. كان القادة الأربعة هم صلاح الدين الصباغ ومحمود سلمان وفهمي سعيد وكامل شبيب.

لجأ نوري السعيد، في محاولة لكسب تأييد المربع الذهبي، إلى تحريضهم ضد وزارة المدفعي، لأن الأخير حاول شق الجيش وفرّط بحقوق العراق في شط العرب حين تنازل عن قسم من هذه الحقوق. وبهذه الطريقة أجبر هؤلاء القادة المدفعي على الاستقالة، وجيء بنوري رئيساً للوزراء، الذي أقر للجيش صلاحية إبداء الرأي بقيام الحكومات واستقالاتها، لكن هذا الإقرار كان مؤقتاً ريثما تمر

العاصفة، إذ كان نوري يضمر الرغبة في وضع حد للضباط وإبعاد الجيش عن السياسة، ويهدف أيضاً إلى تصفية المعارضة أو إضعافها على الأقل.

في هذه الفترة وقع اغتيال الملك غازي وما رافقه من ملابسات، وكان واضحاً للعيان أن نوري السعيد وراء هذا الاغتيال، مما دفعه إلى الاستقالة، فكلفه الوصي مجدداً بتشكيل الوزارة، وما إن مضت بضعة شهور على الوزارة الجديدة حتى نشبت الحرب العالمية الثانية، فطلبت بريطانيا من العراق أن يحذو حذوها ويعلن الحرب على ألمانيا فوافق نوري ووزير خارجيته، وأرفق الأمر أيضاً بقطع العلاقات، مما ولد استياءً شعبياً بالغاً، انعكس على المجلس الأعلى للدفاع.

لكي يعزز نوري وضعه في الجيش قام بعمليات مناقلة بين الضباط القادة، لكن ردود فعل الجيش وتزايد النقمة الشعبية دفع الوصي إلى استبدال نوري السعيد برشيد عالي الكيلاني، وكان الهدف لنوري والوصي بهذا التغيير إشراك الكيلاني في تنفيذ السياسة البريطانية، وتحريض الجيش عليه الجيش في الوقت نفسه.

بعد أن أعلنت إيطاليا الحرب على بريطانيا وفرنسا، طلب السفير البريطاني في بغداد من الحكومة العراقية أن تتخذ موقفاً، لكن الحكومة كانت تميل إلى التريث، وعارضت قيادة الجيش أي ارتباط إضافي ببريطانيا، مما أدى إلى غضب الأخيرة من موقف الحياد العراقي وسياسة التباعد التي أخذت تسلكها حكومة الكيلاني.

وفي محاولة لاختبار موقف الحكومة العراقية، ومدى قربها أو

بعدها من السياسة البريطانية، طلبت الأخيرة السماح بنزول قوات بريطانية في البصرة، بحجة المرور إلى أماكن أخرى. وبعد مفاوضات طويلة وشاقة وافقت الحكومة العراقية على استقبال عدد محدود من هذه القوات شرط ألا تبقى طويلاً، الأمر الذي ولد استياء الحكومة البريطانية ولجوءها إلى المقاطعة والحصار، خاصة للتمور العراقية، المورد الأساسي للعراق في تلك المرحلة. واستمر السفير البريطاني في الاحتجاج على أية صلة أو تقارب مع ألمانيا.

كان موقف نوري السعيد في مجلس الوزراء مختلفاً عن الوزراء الآخرين، وقد سجل وجهة نظره في مذكرة وأرسل نسخة منها إلى الوصي على العرش، فبادر عبد الإلّه وزارة رشيد عالي الكيلاني بطلب الاستقالة، لكن الكيلاني رفض الامتثال لهذا الطلب باعتباره طلباً غير دستوري، وأصر كل طرف على موقفه مما زاد في الخلاف، فاستعان رشيد بموقف العقداء الأربعة، ولكي يخلص الوصي من ضغط الجيش، خاصة القادة، قرر مغادرة بغداد إلى الديوانية لكي يكون في حمى قائد الفرقة الثالثة محمود الراوي.

في مواجهة الأزمة المستفحلة قرر الكيلاني الاستقالة، وبعث باستقالته برقياً إلى الوصي، فقامت مظاهرات صاخبة في بغداد مؤيدة للكيلاني ومطالبة بإجراء انتخابات نيابية جديدة، ولم يستطع أن يردّ الوصي إلى بغداد، مما دفع محمد الصدر لأن يذهب إلى الديوانية وسيطاً، وبتكليف من الضباط الأربعة أن يعهد بالوزارة إلى طه الهاشمي، وهكذا تشكلت الوزارة الجديدة، واشترط الهاشمي بقاء العقداء الأربعة في مواقعهم.

إن وزارة طه الهاشمي كانت بمثابة هدنة بين الوصي وجماعته

من ناحية، وبين أولئك المطالبين بالتحرر من نفوذ بريطانيا من الناحية الثانية. وعندما صدر قرار الوصي بنقل شبيب إلى الديوانية بدل الراوي، والإتيان بالراوي إلى بغداد، انكشفت نوايا الوصي، مما عجّل بالمطالبة باستقالة وزارة الهاشمي وأدخل الخوف إلى قلب الوصي فهرب ليلاً إلى دار عمّته صالحة في الرصافة، واتصل من هناك بالمفوض الأميركي وطلب مساعدته.

في اليوم التالي تنكّر الوصي بمساعدة عمّته بعباءة نسائية وبيجاما وركب عربة تجرها الخيول، ووصل إلى دار المفوضية، فأخفاه الوزير المفوض بلفّه ببطانية، وقيل سجادة، وضعت تحت أرجل الوزير وزوجته واتجهت إلى الحبانية ليكونوا في استقبال السفير البريطاني الجديد كورنواليس! ومن الحبانية اتجه الوصي إلى البصرة لكي يكون أقدر على مهاجمة الكيلاني وتأليب الناس ضده. كان برفقة الوصي جودت الأيوبي، وكان بانتظارهما محافظ البصرة صالح جبر.

في يوم 3 نيسان تشكلت حكومة الدفاع الوطني، وشكّلها الكيلاني بمفرده وكانت مقصورة عليه! مع أن قادة الجيش كانوا يساندونه.

بإيعاز من الوصي توجه جميل المدفعي إلى شمال العراق لكي يحرض القبائل، خاصة قبيلة شمر، ضد الكيلاني، أما السعيد فقد ترك إلى الحبانية قبل يوم واحد من الحركة الجديدة ثم سافر إلى عمان. ولقد لجأ الوصي إلى حرب المنشورات والدعاية. وحين منع من الاتصال هاتفياً من الفندق، اضطر إلى الانتقال إلى أكثر من مكان إلى أن استقر في بارجة إنكليزية كانت راسية في شط العرب،

مما ولّد استياءً كبيراً لدى الرأي العام، بحيث أصبح عاجزاً عن مخاطبة الناس أو إقناعهم، الأمر الذي اضطره إلى مغادرة العراق كله إلى شرق الأردن ففلسطين. وأخذ عداء كورنواليس يزداد تجاه الكيلاني وأخذ يطالب حكومته بضرورة التدخل العسكري. بالمقابل وجد الكيلاني نفسه ملزماً بتنحية الوصي عن العرش وتسمية آخر بدلاً عنه، وهكذا تمّت تسمية الشريف شرف وأقسم اليمين الدستورية أمام البرلمان.

بعد هذه التغيرات، والتي اكتسبت صفة دستورية بمصادقة البرلمان، كُلّف الكيلاني بتشكيل وزارة فقام بتشكيلها وألقى البيان الوزاري، وبدا واضحاً أنه سيخوض المعركة إلى النهاية.

انقضى شهر نيسان 1941 والأمور بين بريطانيا والعراق في حالة شد وجذب، كما أن الاعتراف بحكومة الكيلاني لا يزال محدوداً، لأن الأصل والبداية أن يتم اعتراف بريطانيا لكي تحذو الدول الأخرى حذوها. وبريطانيا لا تزال تصر على استعادة موقعها وضرورة خضوع الجميع لأوامرها، ولذلك لجأت إلى الامتناع عن تسليح الجيش العراقي، وإلى عدم شراء التمور العراقية، إضافة إلى الاستمرار بدعم الوصي وحشد القوى في البصرة، تمهيداً لاستعمال هذه القوى في إخضاع الكيلاني والمؤسسه العسكرية، أو التهديد باستعمالها.

كانت دول المحور، ألمانيا وإيطاليا، تزداد قوة وسيطرة في أوروبا وفي الشمال الإفريقي، وكان العراق يعني أهمية خاصة لهذا المحور، نظراً لما يتمتع به من موقع استراتيجي، وكونه، كما ذكرنا، إحدى أهم عقد المواصلات، وفيه ثروة نفطية تشكل ميزة

للدول التي تسيطر على هذه الثروة، لذا كانت ألمانيا على وجه الخصوص تبدي استعدادها لدعم العراق وتأمين ما يحتاج إليه، خاصة في مجال التسليح. ومع أنه لم يكن صعباً أو متعذراً أن تهتم ألمانيا أكثر بالعراق وتعطيه أولوية، وقبل أن تحشد بريطانيا قواتها في البصرة، إلا أن أولوياتها كانت تنصبّ على أوروبا في هذه المرحلة.

ولكي تفوّت بريطانيا على ألمانيا هذه الفرصة، فقد بدأت بحشد قواتها، أولاً لتغيير الصيغة السياسية في داخل العراق، وثانياً لكي تردع ألمانيا وتجعلها تفكر طويلاً قبل أن تفكر في التدخل لتدعم الكيلاني. وهكذا بدأ السفير البريطاني يطلب نزول قوات إضافية في البصرة لتأخذ طريقها، أولاً إلى فلسطين ثم إلى جبهات القتال سواء في مصر أو الشمال الإفريقي. وقد أثار هذا الموضوع الكثير من الجدل والخلافات، لأن وزارة الكيلاني أبدت تخوفها أن تستخدم هذه القوات ضد العراق، وأن تدعم المعارضين، وظلت هذه القضية قائمة وشديدة الحساسية إلى أن سقطت حكومة رشيد عالي الكيلاني نتيجة التدخل العسكري.

لقد كان لوصول الدفعة الثانية من القوات البريطانية إلى البصرة، وقبل تحرك الدفعة الأولى لمغادرة العراق، دليل أكيد أن بريطانيا تنوي شراً بالعراق، مما دفع قادة الجيش لأن يتحركوا ويتخذوا الاحتياطات التي تمكنهم من الدفاع ورد المحاولات الإنكليزية إذا عزمت على التدخل واحتلال مناطق معينة.

وهنا تتفاوت التقديرات بالنسبة للتكتيكات التي وضعت للمواجهة، إذ بينما يؤكد بعض الذين كتبوا عن الحرب العراقية-البريطانية أن تحركات الجيش العراقي لم تتعد الاستطلاع خاصة

حول قاعدة الحبانية، فإن آخرين يؤكدون أن نوايا بعض القادة كان احتلال هذه القاعدة وفرض الشروط.

ونظراً لقوة سلاح الطيران في القاعدة البريطانية، الحبانية، ولوجود كميات وفيرة من الأسلحة والذخيرة، وأيضاً بحكم تحصينات القاعدة، فإن الاشتباكات التي وقعت بين الطرفين لم تكن في مصلحة القوات العراقية، فقد ألحق الطيران البريطاني بالقوات المكشوفة التي تطوّق القاعدة خسائر كبيرة، خاصة وأن القوات العراقية لم تتعود على حروب الطيران، ولم تكن تملك أسلحة لمقاومة الطائرات المغيرة. لذلك اختلت المعادلة منذ بداية الحرب، مادياً ومعنوياً. وبعد بضعة أيام اضطرت القوات العراقية إلى إخلاء المرتفعات المحيطة بالقاعدة، وتابعتها القوات البريطانية في المنحدرات القريبة بهدف الوصول إلى طريق الفلوجة واحتلاله لمنع وصول الإمدادات من أجل دعم القوات المتراجعة.

ما كادت تقع الحرب حتى ألغى رشيد عالي الكيلاني المعاهدة العراقية - البريطانية. وكان رد فعل الجماهير دعماً منقطع النظير للحكومة، بما في ذلك تبرع المواطنين برواتبهم والنساء بمصاغهن، كما أيدت العشائر موقف الحكومة ودعمته.

في البصرة استغلت القوات البريطانية التفوق النسبي الذي كانت تتمتع به واحتلت منطقة الميناء وبعض المرافق الأخرى، واضطرت الحامية العراقية الموجودة هناك إلى الانسحاب دون قتال.

لقد كان تشرشل مقتنعاً ومتحمساً لتصفية حركة رشيد عالي الكيلاني، وأعطى لهذا الموضوع أولوية خاصة، شرط أن يتم ذلك

عن طريق المجابهة العسكرية، إذ رفض جميع المحاولات التي كانت تطالب بحل سياسي.

ومن أجل الوصول إلى هذه النتيجة فقد طلب تحريك قوات من الأردن، وهكذا تدخلت قوات البادية وقوات حرس الحدود الأردنية بزعامة غلوب باشا وبتأييد كامل من الأمير عبد الله، خاصة وأن الآمال داعبت رأس هذا الأخير باحتمال أن تتجدد له الفرص ويستطيع العودة للمطالبة بأن يكون حاكماً على الأردن وسورية والعراق، وكانت من مهمات القوات الأردنية المتقدمة أن تحتل سكة حديد الموصل.

ولأن الجيش العراقي دمر بعض السدود والجسور فقد غمرت المياه الطريق من الحبانية إلى الفلوجة، مما أخّر تقدم القوات، وجعله صعباً، لكن عملية الإعاقة هذه لم تغير في النتائج، رغم أن الطائرات الألمانية شاركت في هذه المرحلة وقصفت بعض المواقع.

إن سقوط الفلوجة يوم 19 أيار 1941 أفقد حكومة رشيد عالي الكيلاني أعصابها، وتبدت لها الصورة شديدة القتامة، لأنها أصبحت عاجزة عن فعل شيء جدي لتغيير موازين القوى أو مواصلة الحرب. وابتداء من هذا التاريخ وإلى نهاية شهر أيار، أخذ الزعماء يرتبون أمر مغادرتهم وعائلاتهم، ولم يأت يوم 29 من الشهر المذكور حتى كان أغلب المسؤولين قد أصبحوا في طهران. وفي 30 من شهر أيار غادر رشيد عالي الكيلاني العراق واجتاز الحدود إلى إيران. وهكذا، معظم الذي شاركوا في ثورة رشيد عالي الكيلاني، غادروا إلى سورية وتركيا وإيران وإلى بلدان أخرى. وقد تكونت لجنة من أربعة أشخاص لإدارة الأمور ومنع الفوضى قدر الإمكان بعد فراغ السلطة،

وتوجه أعضاء هذه اللجنة لمقابلة السفير البريطاني وطلب الهدنة. وبعد أن شاور كورنواليس معاونيه وقادته العسكريين وافق بشروطه على أن يعود الوصي ويشكل حكومة، وإذا تعذر على الوصي القدوم يمكن أن يرسل المدفعي للقيام بهذه المهمة.

هكذا تم الوصول إلى اتفاق، وتوقفت جميع الأعمال العسكرية، وعاد الوصي ضمن حاشية كبيرة في الأول من حزيران. دخل عبد الإلّه الوصي على عرش العراق، وكان بصحبته نوري السعيد وعلي جودت الأيوبي والحيدري وعدد من المرافقين العسكريين. وكان من جملة القوى التي هبّت لاستقباله، وبفرح غامر، أعداد غفيرة من يهود بغداد. وقد جرت احتفالات مبالغ فيها أدّت إلى رد فعل من طرف سكان بغداد وحصل ما يطلق عليه الفرهود(*).

(*) في الأول من حزيران 1941 عاد الوصي على عرش العراق هو وبطانته، عاد بعد توقف قصير في الحبانية، ليدخل إلى بغداد على دبابة إنكليزية، وقد تبرعت الأقليات بإيعاز من الإنكليز بإقامة احتفالات كبيرة وواسعة ترحيباً بهذه العودة، وفي محاولة للتغطية على الهزيمة المرة التي تعرّض لها قبل شهرين. هذه العودة بعد هزيمة رشيد عالي الكيلاني، رتبت وحشد إليها الكثيرون، وكان على رأس هؤلاء اليهود، وصدف ذلك اليوم أن كان يوم عيد النبي يوشع، وهو من أعياد اليهود. وقد لجأ اليهود إلى المبالغة في إظهار فرحهم وشماتتهم، مما أدى إلى استفزاز المواطنين العرب والمسلمين الذين شعروا بمرارة الهزيمة.
كان رد فعل بعض سكان بغداد على هذه الاحتفالات أن هجموا على الأحياء اليهودية، وقاموا بنهب بعض البيوت أو تحطيم أثاثها، وقد استمر هذا لوقت قصير، وسميت هذه الحادثة بيوم الفرهود.
ولا بد من الإشارة إلى أن الكثيرين من اليهود العراقيين، الذين كتبوا روايات =

أما حول أسباب فشل حركة رشيد عالي الكيلاني، فيعزوها بعض المؤرخين إلى سوء تنظيم وتوقيت الحركة، وإلى المبادرات الإنكليزية بالحصار ثم بالهجوم، وحسن إدارة المعركة الدعائية، هذا علاوة عن حداثة الجيش العراقي وعدم توفر الأسلحة الحديثة بين يديه. ولا بد من الإشارة أيضاً إلى تفاوت الأولويات بين العراق وألمانيا، وبالتالي النظرة إلى العلاقات بينهما، وهذا ما جعل فارق الحسابات كبيراً بين الطرفين. إذ في الوقت الذي انتظر فيه الكيلاني دعماً كبيراً وسريعاً من ألمانيا، فإن ألمانيا كان لها أولويات مختلفة، وكما أن الالمان كانوا حسني النية ولديهم قناعات بكفاءة الجيش العراقي، في الوقت الذي لم تظهر فيه هذه الكفاءة عملياً في ساحات المعارك، مما أدى إلى فقدان الثقة بين الطرفين.

بعد سقوط الحركة ولجوء قادتها، ونظراً لتغير المناخات السياسية، خاصة في إيران، فقد لجأت إيران إلى تسليم عدد من المطلوبين إلى الحكومة العراقية، وبعد أن استلمت الحكومة العراقية هؤلاء جرت لهم محاكمات شكلية وأُعدم أغلب القادة. أما الذين قدّر لهم السفر إلى تركيا ثم إلى ألمانيا فقد قدر لهم النجاة إلى نهاية الحرب العالمية الثانية، ثم اضطروا إلى التفتيش عن منافٍ جديدة. وهكذا لجأ رشيد عالي الكيلاني إلى سورية فلبنان فالسعودية، ثم ذهب إلى مصر، وعاد إلى العراق بعد ثورة تموز 1958، لكن لم تمض بضعة شهور حتى قُبض عليه وسُجن بتهمة التآمر مع

= أو كتبوا سيرهم الذاتية، وكانوا شهوداً على تلك الأحداث، توقفوا طويلاً عند «الفرهود» واعتبروه حدثاً كبيراً ومشهداً درامياً يؤرخون به. وحبذا لو تعاد قراءة هذه الأحداث وتعطى حجمها الطبيعي.

الجمهورية العربية المتحدة وحُكم عليه بالإعدام، لكن هذا الحكم لم ينفذ. غادر الكيلاني العراق مجدداً إلى بيروت فالقاهرة، وعاد إلى بغداد بعد سقوط حكم عبد الكريم قاسم، وأخيراً عاد إلى بيروت ليموت فيها يوم 28 آب 1965، ونقل إلى بغداد ليدفن فيها.

وهكذا انتهى أحد أبرز زعماء الثورات الفاشلة في الوطن العربي خلال القرن العشرين.

وثبة الخير

يوم الجسر

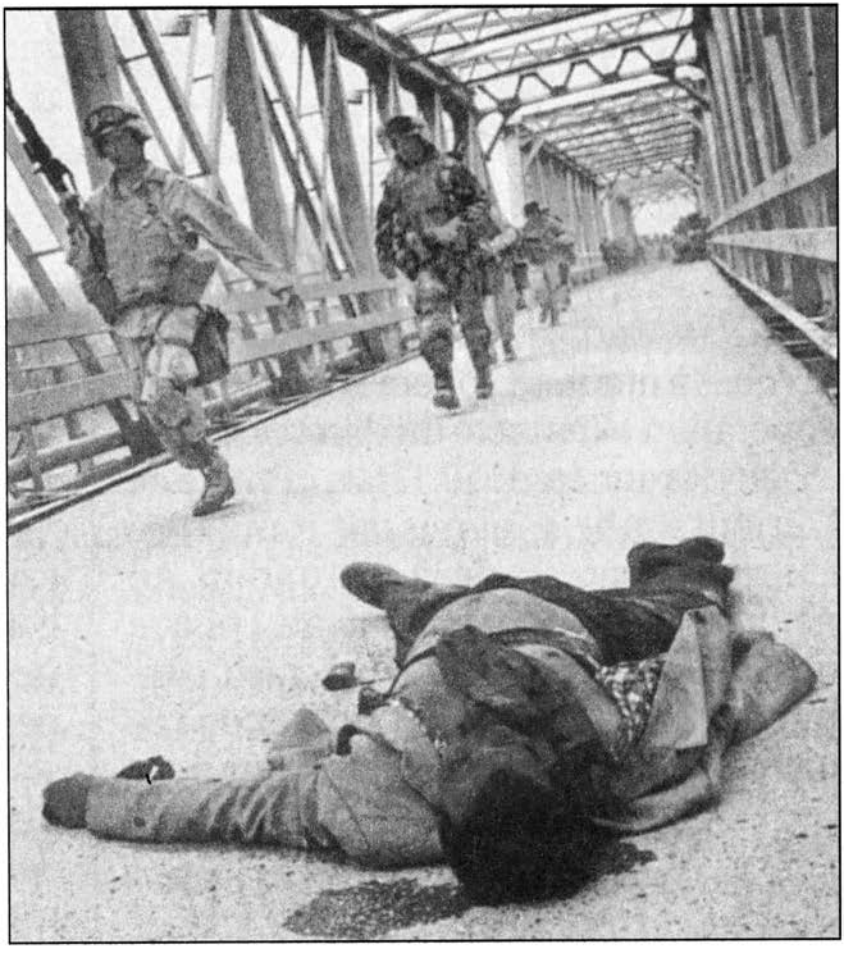

للجسر في بغداد أهمية دائماً . . .

من المشاكل التي رافقت الاحتلال البريطاني للعراق، ومنذ البداية: كيفية تنظيم العلاقة بين الطرفين وفق صيغة تعاقدية مقنعة ومرضية. فلقد ظلت هذه العلاقة، باعتبارها تقوم بين طرفين غير متكافئين، عرضة لتقلبات عديدة، سواء من حيث الصياغة أو من حيث التطبيق. فبريطانيا الدولة المحتلة، والتي أخذت صفة مموهة بعد الاحتلال بفترة قصيرة، إذ أصبحت الدولة المنتدبة، استغلت قوّتها، أولاً، لفرض صيغة للمعاهدة بينها وبين العراق أقرب ما تكون إلى علاقة التابع للمتبوع ؛ واستغلت، ثانياً، المشاكل والتحديات التي تواجه العراق كمشكلة الموصل على سبيل المثال، من أجل فرض صيغة تلبي مصالحها بالدرجة الأساسية، بغض النظر عن مدى ملاءمتها للعراق. وكانت تلجأ أيضاً، إضافة إلى الإجحاف في الصياغة، إلى استغلال حالات التأزم لفرض شروط إضافية، أو لإعطاء المواد تفسيرات لصالحها.

فالمساومة على لواء الموصل مثلاً، ولأي طرف يجب أن يتبع هذا اللواء، ليست خاضعة لموقف مبدئي قدر خضوعها للمطالب التي تريدها بريطانيا من العراق ومدى موافقة العراق على ذلك. ومسألة استيراد كميات من التمور حسب الاتفاقيات المبرمة بين

الطرفين، تخضع في بعض الأحيان للتأخير أو للتوقف كوسيلة ضغط لحمل العراق على القبول بشروط معينة. ومسألة تسليح الجيش العراقي، وفقاً للاتفاقات الموقعة بين الطرفين، تنفذ أو يؤخر تنفيذها تبعاً لمدى رضى بريطانيا على سير الأوضاع، ومدى استجابة الحكومة القائمة لأوامرها. وهكذا نرى أن هذه العلاقة خضعت لتقلبات كثيرة.

ورغم أن العلاقة بين طرفين غير متكافئين يُلحق، بصورة عامة، إجحافاً بالطرف الضعيف، ويجعله مضطراً إلى تقديم التنازلات، فإن المعاهدات بين بريطانيا والعراق مثال على مدى الغبن الذي لحق بالعراق، ومدى الابتزاز الذي تعرّض له. ليس ذلك فقط، بل إن إعادة النظر مرة بعد أخرى، وخلال فترات زمنية متقاربة، في تلك المعاهدات، بغض النظر من أية جهة أتى، يدل على أن تلك المعاهدات غير متوازنة وتُلحق الضرر بالطرف الضعيف، مما استدعى التعديل مرة تلو المرة. ولعل المعاهدة الأخيرة، معاهدة بورتسموث، عام 1948 وما أدت إليه من أحداث وصدامات بين الحكومة والجماهير، تبين لنا حجم الغبن وحجم الصراع والتجاذب بين الطرفين.

لكن قبل الدخول في متابعة الملابسات التي رافقت هذه المعاهدة، يجدر بنا أن نلقي نظرة سريعة على الأوضاع السياسية منذ إبرام المعاهدة التي سبقتها وصولاً إلى تلك المعاهدة.

عقد العراق مع بريطانيا أربع معاهدات قبل معاهدة بورتسموث. الأولى عام 1922، وكانت تجعل العراق تابعاً تماماً لبريطانيا. أما بعد أن أخذ العراق ملامح الدولة وأصبح فيصل ملكاً فعلياً، فقد اقتضى

الحال إعادة النظر بالمعاهدة، فكانت الصيغة البديلة هي تلك المعاهدة التي تم إبرامها عام 1926. وكما ذكرنا من قبل، كانت مشكلة الموصل في هذه المرحلة في طريق الحل، بعد أن تم الاتفاق على صيغة لاقتسام بترول الموصل، وهكذا استغلت بريطانيا هذا الظرف وعقدت المعاهدة. لكن لم تمر سنة إلا وتطلّب الحال تعديلها من جديد، فكانت معاهدة 1927. أما معاهدة 1930 فقد ترافقت مع وعد العراق بتأييد طلبه للانضمام إلى عصبة الأمم والاعتراف به كدولة مستقلة.

في الثلاثينيات وقعت أحداث كبيرة متتالية: غياب الملك فيصل الأول؛ تسمية غازي ملكاً للعراق؛ والأحداث التي وقعت في عهده، سواء ثورة الآثوريين أو انقلاب بكر صدقي، وأخيراً مقتل الملك غازي في حادث يشوبه الكثير من الملابسات، وتسمية عبد الإلّه وصياً على عرش فيصل الثاني، وما تعرّض له عبد الإلّه من شد وجذب ومحاولاته فرض وجوده.

ولا بد من الإشارة هنا إلى عام 1941 وقيام حركة رشيد عالي الكيلاني، واضطرار عبد الإلّه إلى الهرب بظروف مذلة، ثم كيف أعاده الإنكليز، ومحاولاتهم أن يخلقوا منه حاكماً فعلياً يمسك كامل السلطة بين يديه. فبعد أن بدأ عبد الإلّه ضعيفاً يلفّه الخوف والخجل في كل خطواته، تحوّل تدريجياً إلى حاكم متجبر يفرض ويجب أن يطاع، وكان في ذروة تجاربه للسيطرة على السلطة يحاول أن يقوم بتعديل معاهدة 1930 التي انقضى على عقدها زمن تغيرت خلاله أشياء كثيرة، بما في ذلك وقوع الحرب العالمية الثانية على المستوى العالمي، وبلوغ المشكلة الفلسطينية مرحلة بالغة الدقة والحساسية

على المستوى العربي، وبالتالي إيجاد أوضاع في العراق تلائم هذه التطورات، وإقامة نمط جديد من العلاقة مع بريطانيا يتناسب والمرحلة الجديدة التي حصلت وتلك التي تتفاعل وتتكون. وهنا نصل إلى الملابسات التي رافقت معاهدة بورتسموث، وما أدت إليه من نتائج. فالتغيرات التي أعقبت الحرب العالمية الثانية، بما في ذلك قيام منظمة الأمم المتحدة، وما نص عليه ميثاقها من ضرورة المساواة بين الدول أعضاء المنظمة اقتضى التوفيق بين المعاهدة البريطانية - العراقية وميثاق الأمم المتحدة، ثم إن دخول عدد من البلدان المستعمَرة في مفاوضات مع الدول المستعمرة، خاصة مصر، شجع العراق على أن يبحث مع بريطانيا أمر تعديل المعاهدة. وخلال فترات متعددة، في بغداد ولندن، جرى التطرق للأمر، إلى أن أعلن السويدي في بيان الوزارة التي ألّفها في ربيع 1946 ضرورة تعديل المعاهدة، وأكدت الوزارات التي تلت تلك الوزارة المطلب ذاته. وكان الأمير عبد الإلّه، الوصي على العرش، قد بدأ مباحثاته في زياراته المتعددة إلى لندن، خاصة بعد أن أصبح صاحب القرار في السياستين الداخلية والخارجية. وحين تبلورت الخطوط الأساسية للتعديلات التي يجب أن تجري، طلب الوصي من رئيس الوزراء، صالح جبر، أن يواصل مباحثاته مع الجانب البريطاني.

لا ينكر أن صالح جبر قام بمناقشة التفاصيل المتعلقة بالمعاهدة، لكن يجب التأكيد قبل هذا على الدور الذي قام به الوصي ونوري السعيد، فقد قام الاثنان بالاتفاق مع الجانب البريطاني بإقرار الخطوط الجوهرية للمعاهدة، وناقشا الأمور الأساسية لطبيعة العلاقة بين الطرفين، وتقديراً للظرف الدقيق الذي

كان قائماً آنذاك اقترح نوري على الوصي تعديل الوزارة، لكن هذا الأخير رفض ذلك، فاقترح عليه أن يدعو عدداً من النواب والأعيان ووزراء سابقين لمناقشة الأمر وتحميلهم المسؤولية أيضاً، وهكذا بدأت سلسلة من الاجتماعات ضمّت طيفاً واسعاً من القوى والشخصيات السياسية. كل ذلك لمواجهة حالة الاحتقان الشعبي التي بدأت تتكون وتتصاعد متناسبة مع المفاوضات الجارية لعقد المعاهدة.

لم تكن الاجتماعات التي دعا إليها الوصي من أجل التشاور حول الموضوع سوى مسرحية، الغرض منها تهيئة الرأي العام لقبول المعاهدة، وإظهار أن الجميع شارك في المناقشة، ومن ثم ساهم في الموافقة. لكن انفجار الرأي العام على شكل مظاهرات، وتزايد عدد الشهداء نتيجة الصدامات، دفع إلى تخوّف الوصي، وجعله يتحسب للنتائج المحتملة. أكثر من ذلك، وبسبب زيادة الاحتقان الشعبي، لجأ الوصي إلى الظهور بمظهر المحايد في هذا الصراع، إذ بعد أن أصبحت المظاهرات والصدامات طقساً يومياً، وبعد أن سقط عدد كبير من القتلى والجرحى أخذت الخشية تتسرب إلى صدور الكثيرين من إمكانية أن يفلت الموقف، وبدأ تحميل المراتب الدنيا، خاصة جهاز الشرطة، مسؤولية إطلاق النار على المتظاهرين، والقول إن الوصي على وجه التحديد هو الذي كان يطلب ويلح في الطلب بعدم استعمال السلاح مهما تزايدت الأزمة! وتكاثرت في هذا المجال شهادات كبار المسؤولين وهي تؤكد براءة الوصي وعدم مسؤوليته عن تدهور الموقف. في الوقت الذي يشهد فيه كبار المسؤولين أنفسهم، في وقت لاحق، وأمام محكمة المهداوي، بعكس ما أدلوا به من

شهادات سابقة، وأن الأوامر باستعمال أقسى درجات العنف في مواجهة المتظاهرين كانت تصدر من قبل الوصي مباشرة.

أكثر من ذلك، وبعد أن زاد تأزم الموقف، أخذ الوصي يتنصل من أية مسؤولية، وحين وقعت مذبحة الجسر المشهورة، حيث حوصر المتظاهرون، وكان أغلبهم من الطلاب العزل، وسقط عدد من الشهداء، أراد رئيس الوزراء، صالح جبر، أن يستقيل، لكن الوصي أمره بالاستمرار وطي الاستقالة، وظل الأمر مكتوماً طوال العهد الملكي، ولم يُعرف إلا بعد أن سقط هذا العهد ونُشرت الأوراق.

كل الدلائل تؤكد أن الاجتماعات التي دعي إليها في قصر الرحاب، ورغم أنها ضمّت عدداً من المعارضين، مجرد تمثيلية القصد منها امتصاص نقمة الرأي العام. ثم إن هذه الاجتماعات، حين تم اختيار المشاركين فيها، لم تهدف إلى تفاهم الحكومة مع المعارضة، أو إجراء حوار ديمقراطي، وإنما إلى توريط المعارضين، وإشراكهم، بشكل ما، في مسؤولية ما يجري. ولعل سلسلة الحوادث التي وقعت، ثم الشهادات التي أدلى بها أصحاب العلاقة، سواء في المحاكمات التي جرت، أو في المذكرات الخاصة والعامة التي كتبت، تدلل على أن ما كان يدبر شيء وما كان يعلن شيء آخر، خاصة وأن الوقائع تؤكد ذلك. ففي إحدى المظاهرات وقع عدد كبير من الشهداء بين المتظاهرين، في الوقت الذي كانت فيه إصابات الشرطة وكلها جروح بسيطة نتيجة رجم الحجارة، ومع ذلك تؤكد الحكومة أن المتظاهرين مسلحون، وأنهم كانوا ينوون الإيقاع بالشرطة!

وإذا كانت المظاهرات قد بدأت واتسعت منذ أن بدأت المفاوضات، فإن مغادرة الوفد الرسمي إلى لندن بهدف التوقيع على المعاهدة زاد اتساع المظاهرات وعظّم ضراوتها ومشاركة قطاعات متزايدة ومتنوعة فيها، مما زاد قلق الوصي، وبالتالي إلحاحه على صالح جبر أن يوافيه بالتفاصيل اليومية.

أما حين أُعلنت نصوص المعاهدة، أصبح الشارع هو القوة المسيطرة. وبلغ الأمر في بعض الحالات أن الوصي اضطر من أجل الوصول إلى البلاط إلى سلوك طرق طويلة وثانوية تجنباً لغضب الجماهير.

تداركاً لما هو أسوأ دعا الوصي مجدداً إلى اجتماعات في البلاط، وقد حضر هذه الاجتماعات عدد من رؤساء الوزارات والأعيان والنواب، وشارك فيها أيضاً بعض المعارضين، وقد انتقد الحاضرون المعاهدة وطالبوا برفضها، الأمر الذي اضطر الوصي أن يطلب إلى رئيس وزرائه والوفد المرافق العودة إلى بغداد، وأمر بإذاعة بيان يعلن رفض المعاهدة.

بعد المظاهرات الدامية، والشهداء الذين سقطوا خلالها، ثم بعد الاضطرار إلى إلغاء المعاهدة، عمَّ الارتياح أوساطاً واسعة، وفاجأ هذا الإلغاء الدوائر العربية والأجنبية. بل وصلت المفاجأة إلى الأوساط السياسية والصحفية في إنكلترا ذاتها، خاصة وأن أصداء المظاهرات والصدامات وصلت إلى أقصى الأمكنة وحركت قوى كثيرة سواء في العراق أو خارجه. وكان واضحاً للقاصي والداني أن صالح جبر، «بطل» معاهدة بورتسموث لا يتعدى كونه منفّذاً لإرادة الوصي أولاً ثم لإرادة نوري السعيد ثانياً، وهذا ما دفع الجماهير إلى

مواصلة الاحتجاج باستمرار المظاهرات والمطالبة بتشكيل حكومة وطنية وحل المجلس النيابي المزيف، وكان الهتاف الذي تردده الجماهير لإدانة من هم وراء المعاهدة: نوري السعيد كندرة وصالح جبر قيطانها... نوري السعيد كندرة وصالح جبر قيطانها.[1]

رغم البيان الذي أذاعه الوصي بقبول استقالة وزارة صالح جبر، وعدم الموافقة على المعاهدة، إلا أن الجماهير ظلت متخوفة، اعتماداً على تجارب سابقة، بأن يتراجع الوصي وأن يتم الالتفاف على الغضب ومحاولة امتصاصه، خاصة وأن وزارة صالح جبر استمرت تفاوض في لندن.

بعد مظاهرات استمرت لعدة أيام لاحقة، عاد الوفد المفاوض سرّاً إلى الحبانية، وانتقل صالح جبر سرّاً إلى قصر الرحاب، وطلب أن يُعطى مهلة إضافية لإخماد الشغب وقمع المظاهرات. وفي مساء السادس والعشرين من شهر كانون الثاني من عام 1948 أذاع رئيس الوزراء بياناً مليئاً بالتهديد والوعيد، لكن الجماهير لم تأبه له، بل زادها غضباً وثورة، وحين عبرت هذه الجماهير الجسر أمطرتها قوات الشرطة بالرصاص فسقط عدد متزايد من الشهداء، كما أشرنا من قبل. وزادت ثورة الجماهير، مما اضطر رئيس الوزراء إلى الهرب، وبالتالي سقطت فعلاً الوزارة والمعاهدة، وكلف الصدر بتشكيل الوزارة الجديدة.

إن المعركة، والتي أُطلق عليها الوثبة، من أهم المعارك التي

---

(1) بعد أن هدأت الأحوال في أعقاب الوثبة ابتدع أنصار نوري السعيد أهزوجة رداً على السابقة تقول: نوري السعيد شدة ورد وصالح جبر ريحانها.

خاضها الشعب العراقي، إذ بالإضافة إلى أن مادتها وقادتها من الجماهير غير المسلحة، فإن النفس الطويل الذي طبع المظاهرات، وجعلها تستمر لمدة شهر تقريباً، وعدد الشهداء الذين سقطوا خلالها، وتجاوز الجماهير للإطارات الموجودة في البلاد، وعدم تسليمها بتحقيق مطالب جزئية، كل ذلك دفع السلطات، على كافة المستويات، لأن تنحني أمام العاصفة، وأن تستجيب للمطالب التي رفعها المتظاهرون.

ومع أن السلطات اضطرت إلى الاستجابة للمطالب، إلا أن الوصي وأركانه لم يكفّوا عن المناورة والالتفاف على الحالة الجديدة، فقد أوفد الوصي رئيس ديوانه إلى لندن لكي يشرح للحكومة البريطانية الملابسات التي رافقت اضطراره إلى إلغاء المعاهدة وإقالة وزارة صالح جبر. لم يكتف بذلك بل هدد بالاستقالة من وصاية العرش لخلق فراغ دستوري وإرباك الحكومة الجديدة والأحزاب السياسية، ولولا الضغط الذي مارسته عليه قوى عديدة، لكان من المحتمل أن تتدهور الأمور مجدداً، وأن تواجه البلاد مأزقاً.

لكن أمكن تجاوز هذا المأزق، وتم استرضاء عبد الإله، انتظاراً لفرصة لاحقة من أجل الانتقام وتسوية حساباته مع خصومه، كما فعل في أعقاب ثورة رشيد عالي.

إن يوم الجسر يوم مشهود في تاريخ العراق الحديث، ولا تزال الجماهير، حتى التي لم تحضر ذلك اليوم، تستعيده بكثير من الكبرياء والعنفوان، ويشير إلى مدى قوة الجماهير خاصة حين تمتلك إرادتها وتصمم على مقاومة الغزاة والمحتلين وأذنابهم.

في ذكرى اليوم السابع للشهداء أُقيم احتفال ليس له نظير في تاريخ العراق الحديث، إذ أقيم الاحتفال في أحد المحافل التاريخية: جامع الحيدر خانة، الذي بناه داود باشا في عشرينات القرن التاسع عشر، وخرج تحفة معمارية رائعة، سواء من حيث التصميم والزخرفة والبناء، أو من حيث الموقع الهام الذي يحتله في شارع الرشيد. ومما زاد في أهمية هذا الاحتفال أن كان الشاعر محمد مهدي الجواهري أحد خطباء الحفل، وألقى قصيدة رثاء مجَّد فيها الشهداء وأشاد بتضحياتهم، خاصة وأن أخاه جعفر كان أحد الشهداء الذين سقطوا على جسر المأمون في مواجهة الشرطة ورصاصهم الغادر.

ومما قاله الجواهري في تلك القصيدة:

أتعلم أم أنت لا تعلم بأن جراح الضحايا فم
فم ليس كالمدعي قوله وليس كآخر يسترحم

* * *

أتعلم أن جراح الشهيد تظل عن الثأر تستفهم
أتعلم أن جراح الشهيد من الجوع تهضم ما تلهم

تقحم- لعنت أزيز الرصاص وجرب من الخط ما يقسم
وخضها كما خاضها الأسبقون وثنّ بما افتتح الأقدم

أخي «جعفراً» يا رواء الربيع إلى عفن بارد تسلم
أخي «جعفراً» إن رجع السنين بعدك عندي صدى مبهم

اللصوص «يحرسون» الكنوز

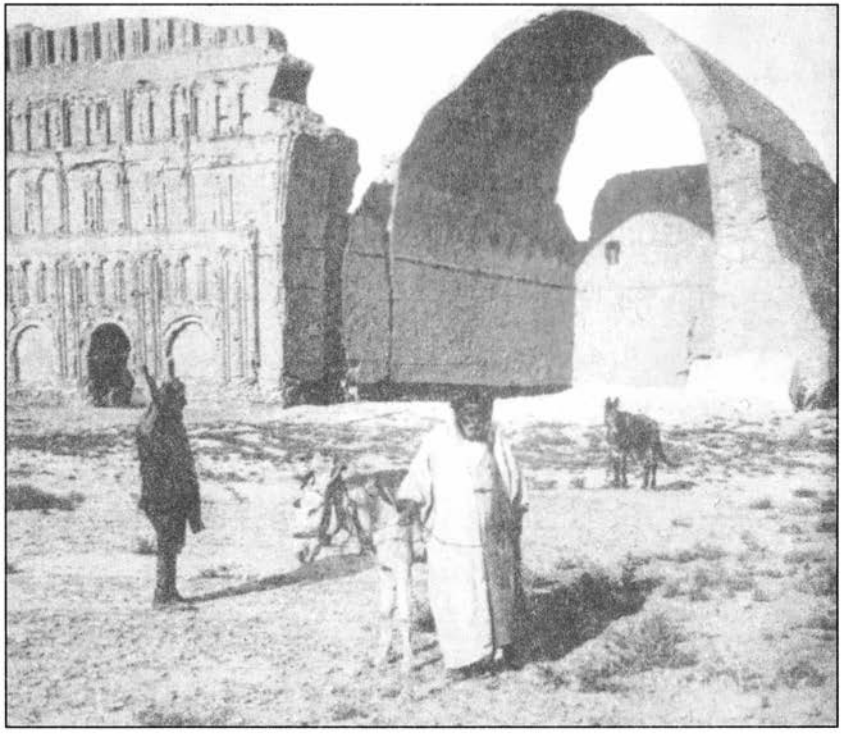

إيوان كسرى: من آثار العراق

عندما دمر الطالبان تماثيل بوذا اهتز العالم من أقصاه إلى أقصاه، ولم يبقَ أحد إلا وتدخل بشكل ما. فالأمم المتحدة، وخاصة اليونسكو، والدول الأوروبية، والدول العربية، بما فيها الأزهر، وحتى الولايات المتحدة الأميركية، كل هذه الجهات هبّت للدفاع عن التماثيل، وحين عجزت ودمر الطالبان التماثيل لم يبقَ أحد إلا وأدان هذه الجريمة التي اقترفت بحق الإنسانية كلها.

ولما لجأ الرعاع المسخرين إلى نهب المتحف العراقي، وتحطيم ما عجزوا عن حمله، وحين أحرقوا مركز الوثائق في بغداد، وكذلك المكتبة الوطنية، وما فاتهم حمله، أو تأخروا في ذلك، لجأوا إلى إحراقه في المكتبة. كذلك فعلوا بالنسبة لمكتبة الأوقاف، والتي تعتبر من المكتبات الهامة، لأن كثيرين كانوا يوصون بمكتباتهم الخاصة إلى هذه الجهة، وكانت هذه المكتبات تحوي عدداً كبيراً من المخطوطات الهامة والنادرة. وكذا الحال بالنسبة لسجلات النفوس والسجل العقاري ومؤسسات عديدة أخرى. وما عدا عدد محدود من ذوي الضمائر اليقظة الذين احتجوا على هذه الأفعال، فإن معظم الناس في العالم صمّوا آذانهم أو تظاهروا أنهم لم يروا. وهكذا بعد أسابيع سوف تطوى هذه الصفحة السوداء في التاريخ، وكأنها لم

تكن، لأن الذي قام بهذه الفعلة الشنعاء ليس الرعاع واللصوص وإنما الولايات المتحدة الدولة المحتلّة، وإن استعملت أيدي الآخرين[1].

إن الولايات المتحدة تفاخر بالمتاحف التي لديها، في نيويورك وشيكاغو وبنسلفانيا، وفي مركز كل ولاية من ولاياتها الخمسين. بل أكثر من ذلك: لديها متاحف خارج المدن وفي عدد كبير من الجامعات؛ وفي هذه المتاحف معظم كنوز العالم من الآثار واللوحات والتماثيل، بحيث تعتبر ما تمتلكه هذه الدولة يفوق بعدده وأهميته ما تمتلكه أية دولة أخرى.

إن في متاحف الولايات المتحدة أثاراً بالغة الأهمية والحجم. فالآثار الفرعونية في متحف المتروبوليتان مثلاً توازي أو تفوق ما هو موجود في المتحف المصري، وما عدا الأهرام والمسلات فإن الآثار المصرية تتنشر في متاحف المدن الصغيرة والجامعات.

هذه الآثار تم وضع اليد عليها بمقابل أو دون مقابل في أغلب الأحيان. فالسادات مثلاً وزوجته كانا يسحبان من المتحف أعمالاً هامة ويقومان بإهدائها إلى رؤساء الدول والأصدقاء، لأن هذه القطع هي السفارات الحقيقية لمصر، كما كان يقول السادات!

وما ينطبق على الآثار المصرية ينطبق من باب أولى على آثار

---

(1) من الضروري لمعرفة الفاعلين الأساسيين في هذه الجريمة، وليدرك الناس، في جميع أنحاء العالم، حجمها، أن تقوم جهة أو أكثر ذات مصداقية أو أكثر لتصوير وتقديم المعلومات عن الأشياء المسروقة، اعتماداً على سجلات المتحف، إذ عندما تقترن الكلمة بالصورة يظهر حجم المشكلة. وسجل مثل هذا يمكن أن يساعد على وضع اليد، مجدداً على الأشياء المسروقة وإعادتها إلى مكانها.

الدول الأخرى، الصغيرة، بالمقارنة مع مصر. فآثار ما بين النهرين، وقسم كبير من نواويس تدمر، ولقى كثيرة من اليمن والأردن، وأماكن أخرى عديدة من المنطقة رحلت آثارها، بالبيع المهرب والهبة، وأصبحت تزين متاحف عديدة في العالم.

لقد لجأت الولايات المتحدة إلى عملية التكديس الهائلة من أجل سد النقص الذي يميزها وتشعر به.

ما يقال عن الآثار ينسحب على المخطوطات أيضاً، ففي مكتبات أميركا ملايين المخطوطات المسروقة أو التي تم شراؤها بأثمان زهيدة، بحجة أنها عديمة القيمة أو يمكن أن تحفظ في أمكنة مناسبة، وستعاد إلى مواطنها في يوم من الأيام.

إن المخطوطات الهامة والنادرة، والتي تتمتع بقيمة تاريخية وفنية، رحلت عن المنطقة العربية إلى عواصم الغرب وحواضره، وهناك قفل على القسم الأكبر منها، بحيث لا تتاح الفرصة للتصوير أو العرض، أو لمجرد الرؤية.

والأمر نفسه ينسحب على الأعمال الخشبية والنحاسية والسجاد القديم النادر، وكذلك الحال بالنسبة للفسيساء والتماثيل وأعمال الخزف وغيرها من المشغولات اليدوية.

أما ما يخص الأعمال الفنية الحديثة من لوحات وتماثيل وأشغال أخرى فإنها تملأ المتاحف الأميركية على بكرة أبيها، بحيث تعتبر أغنى من أية متاحف أخرى، حتى في مواطن الفنانين أنفسهم. لقد تم شراء هذه الأعمال في وقت مبكر، ونقلت إلى الولايات المتحدة. جرى ذلك عن طريق الأفراد، لكن بتشجيع من الدولة

وتحريضها. والآن إذا أُقيم أي معرض فني استعادي لأي من الفنانين الكبار، فإن ما يصل من الولايات المتحدة لهذا الفنان يفوق ما يصل من أي مكان آخر.

ثم هناك ميزة في السلوك الأميركي، وهي تشجيع تزوير اللوحات وشراؤها، ثم بعد فترة مبادلتها بلوحات أصلية مع محاولة التكتم على رحلتها، خاصة وأن المافيا العاملة في هذا الحقل متواطئة مع عدد غير قليل من المسؤولين عن المتاحف. ومن النكت الرائجة في هذا المجال: إن رمبرانت رسم طوال حياته ستمائة لوحة، ثلاثة آلاف من هذه اللوحات موجودة في الولايات المتحدة!

قد تكون هذه المقدمة نافلة، لأن الجرح الذي يراد الحديث عنه هو ما حصل للمتحف العراقي والمرافق الأخرى التي أشرنا إلى بعضها.

فبعد تجربتين أوليتين في الهجوم على المتاحف في تكريت والناصرية، دون أن تخلفا ردود فعل جدية كانت «الحفلة» الكبرى في بغداد والموصل.

كان من أيسر الأمور حماية هذه المرافق، إذ يكفي أن توضع دبابة واحدة من دبابات «التحرير والفتح» عند كل مرفق لمنع هذا الذي حصل. لكن كان وراء تسهيل الوصول أمر مدبر ومبيت. فعمليات الإغراء والتشجيع للرعاع، والأغلب أنه تم تحضيرهم في وقت مبكر للقيام بهذا العمل، كي يتم التستر وراءه من أجل عمليات نهب منظمة وواسعة من قبل القوات الغازية أو عن طريق هذه الحثالات.

إن إسرائيل وأميركا ليستا بعيدتين عما حصل، إذ لم تكتف قوات الغزو بمشاهدة كل ما يحصل، وإنما حمت اللصوص ويسرت لهم أن يحملوا مسروقاتهم ويهربوا بها، وما تعذر حمله حطم أو حرق، وإلا كيف نفسر تحطيم أو نهب ما يزيد على مائة وسبعين ألف قطعة أثرية؟ ولماذا تشعل النيران بالمكتبة ومركز الوثائق، وبعدد آخر من الدوائر والمؤسسات الحكومية؟

إن من يفتقر إلى التاريخ يحاول أن يخترع لنفسه تاريخاً ملفقاً. ومن يبحث عن تاريخ لكي يسند حججه وادعاءاته يمكن أن يفعل أي شيء من أجل الوصول إلى ما يعتبره أثراً أو مستنداً. وكلنا نتذكر كيف أن موشي دايان، بعد أن تتوقف النار قليلاً، يهب إلى الفأس ليبحث عن الآثار من أجل تعزيز حجة إسرائيل أن اليهود مروا من هنا، وهذا هو الدليل!

حين بدأت التعبئة لخوض الحرب ضد العراق، تبارى قادة الولايات المتحدة في تحديد المآل والمصير الذي ينتظر العراق، ليس فقط من حيث الدمار، وإنما من حيث التخطيط لإرجاع هذا البلد إلى العصور الوسطى، أي إلى ما قبل الصناعة. والموقف من الآثار والمخطوطات وغيرها من الكنوز التي تراكمت عبر آلاف السنين، يهدف إلى خلق «ذاكرة» جديدة مزورة، إذ المطلوب تجريد العراق من تاريخه وتراثه، وأيضاً من علمائه الذين يشكلون الضلع الثالث في هذا المثلث.

إن حقداً أسود شريراً يملأ قلوب هؤلاء «المحررين»، إذ لا يتصورون أن لدى الخصم أي ميزة، وفي حال وجود ميزة أياً كانت لا بد من تدميرها كي تختفي من الذاكرة. وبدل الجنائن المعلقة،

وانتقاماً لبرج التجارة الدولي في نيويورك، - رغم الاتفاق على أن لا علاقة للعراق بذلك - ولم يكن الانتقام من صدام حسين، بل من آشور بانيبال ونبوخذ نصر وسعد بن أبي وقاص وغيرهم. وما تنساه الذاكرة الأميركية المثقوبة، هناك الذاكرة الإسرائيلية التي تجمع وتراكم من أجل الانتقام، بهدف خلق وضع «جديد».

إذا لم يكن هذا الهدف، وإذا لم تكن هذه هي الأدوات، كيف نفسر عمليات التدمير والحرق لمؤسسات ليس فيها ما يسرق أو ما يحمل، مثل السجل العقاري وسجلات النفوس؟

المهم الآن خلق أكبر كتلة من الإرباك والتداخل، ووضع سلّم أولويات غير ما يحتاج إليه الشعب، أو يحقق مطالبه. فتأمين الماء والكهرباء والأمن والاستشفاء تفوق بأهميتها الملحة والعاجلة «الديمقراطية» التي جاءت الولايات المتحدة من أجل إقامتها، ولتكون أيضاً النموذج الذي يمكن أن يعم المنطقة!

إن وباء الكوليرا يهدد، بداية، البصرة، ويمكن أن يعم العراق، وربما مناطق أخرى، نتيجة تلوث الماء وانتشار الجثث المتفسخة في كل مكان، وخلو المستشفيات من الأدوية ووسائل العلاج. إن حالة مثل هذه لم تأت عفواً أو نتيجة الخطأ والسهو، وإنما هي حالة مدبرة ومقصودة. وإلا كيف انصرف فسفور العقل الأميركي إلى حماية النفط سواء آبار الجنوب والشمال، ثم وزارة النفط ذاتها، كي ترجع إليها المخابرات المركزية وتضع يدها على كل ما فيها من معلومات وأرقام واحتمالات وعلاقات وتنسى المرافق الأخرى؟

لو بذلت قوات «التحرير» الحد الأدنى من الجهد في حماية

المرافق الأساسية، ومن ضمنها ما أشرنا إليه، لما واجهنا هذه المأساة التي تبدو اليوم بعض مظاهرها الأولية. أما بعد أن يبرد الجرح، كما يقال، ونتأمل فيما حصل سوف نكتشف أن الخسارة ليست كبيرة فقط، وإنما لا تعوض، مما يعكس جوهر الحضارة الأميركية ومدى حرصها على التراث الإنساني، ومدى ما تخبئ للشعوب في المستقبل.

ما حصل في العراق من قبل الامبراطورية الأميركية سبة في جبين هذه الدولة إلى يوم القيامة. حتى استراليا لا تنجو من هذه اللعنة، وأيضاً تلك الدول المتحمسة للمشاركة في تلويث أيديها بدماء العراقيين بهدف أن ترفرف في ميادينها أعلام ماكدونالد! لقد شاركت بعض هذه الدول بعنصر واحد، وأخرى بعثت بعشرة من رجالها لتفكيك الألغام وإعلان الولاء للراعي الأميركي. والغريب أن دول أوروبا الشرقية، والتي كانت أكثر صداقة للعرب، بذلت كل جهدها للتكفير عن هذه الصداقة، ومحاولة إلغاء الذاكرة. كل ذلك لإرضاء أميركا وكسب عطفها، ومحاولة الانتقال إلى الجنة التي تعد بها الكثيرين!

حين دخلت نائبة مدير المتحف ورأت الدمار الذي حل بالآثار، قالت وهي تنتحب أن المجرم الحقيقي في ما حصل ليس هؤلاء الرعاع وإنما الأميركيون.

ولنا الآن أن نتصور كيف سيكون العصر الأميركي الجديد، وكيف سيتصرف رعاة البقر إذا لم تتحد البشرية كلها لمواجهة هذا الطوفان من الهمجية ووضع حد للبربرية الجديدة!

إنقاذ علماء العراق

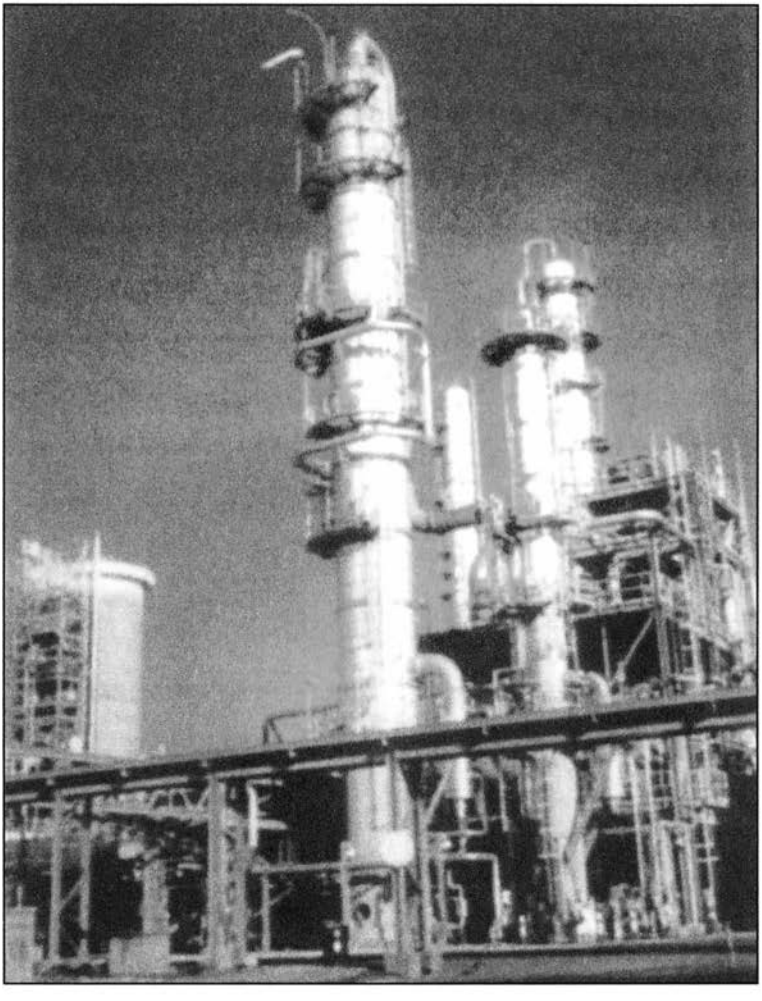

هل يستفاد من العلماء لقيام صناعة في العراق

بعد حرب امتدت لسنوات عديدة، وخلّفت خسائر وأضراراً فادحة، هزمت ألمانيا واليابان، وكان من المتوقع أن تعجز هاتان الدولتان عن النهوض مرة أخرى خلال فترة قصيرة، لأن دول الحلفاء ألحقت بهما أضراراً كبيرة، وجردتهما من معظم عناصر القوة، إذ دمرت الصناعات كلها في البلدين، ونهبت أغلب الثروات، كما خربت طرق المواصلات، خاصة السكك الحديدية، وفرضت على الدولتين المهزومتين تعويضات كبيرة، كانت تعجز عن أدائها دول أقوى وأغنى.

أما القسوة التي عوملت بها الدولتان خلال الفترة الأخيرة من الحرب فقد بلغت حداً يفوق أي وصف ويتجاوز أي حد، إذ استعملت القنبلة الذرية ضد اليابان، وأُلقيت على ألمانيا كمية هائلة من القذائف، بحيث تهدمت مدن عديدة بالكامل وسقط عدد كبير من الضحايا.

إن وضعاً مثل هذا كان يجعل نهوض ألمانيا واليابان من جديد أمراً بالغ الصعوبة، لكن الإرادة التي ميزت هذين البلدين، والتصميم على مواجهة التحدي الذي وجدتا نفسيهما أمامه، ثم الكوادر

البشرية، الكبيرة والكفؤة، التي حافظت عليها الدولتان، ووجود مساعدات لإعادة البناء، هذه الأسباب، وأخرى غيرها، جعلت إمكانية النهوض تلاقي رياحاً مواتية، وتبدأ خطوة بعد أخرى وبسرعة متزايدة، بحيث لم تمر إلا بضع سنوات حتى أصبحت هاتان الدولتان، ألمانيا واليابان، وقد اجتازتا المراحل الأولى الصعبة، وبدأتا تصنفان، من جديد، في قائمة الدول الصناعية المتقدمة، خاصة وأنهما أُعفيتا، أو مُنعتا من إقامة جيش ولم تدخلا في سباق التسلح، وإنما كرستا إمكانياتهما للصناعة والمواصلات وتوظيف ما يتوفر من أموال وطاقات للتنمية الصناعية والإدارية وإزالة آثار ما خلفته الحرب.

لقد كان الوعي الذي ميز الدولتين، ثم سُلَّم الأولويات الذي ميز الخطط التي اتبعتاها، وتلك العناية الفائقة بالكوادر المحلية، وتوسيع قاعدة الصناعة والتجارة لمواجهة منافسة الدول الأخرى، جعل هاتين الدولتين في وضع أقدر من غيرهما على التنافس، وعلى تخطي المصاعب والتحديات.

تجربتا ألمانيا واليابان جديرتان بالاهتمام، خاصة بعد الحرب الأميركية العراقية، لأن العنوان الأساسي الذي شنت الحرب من أجل الوصول إليه هو نزع ثم تدمير أسلحة الدمار الشامل، وقد حشدت الولايات المتحدة قواها العسكرية والإعلامية تحت هذا العنوان، ليس من أجل تدمير الأسلحة، وإنما من أجل تدمير النظام، ووضع اليد على الثروة النفطية، ومنع هذا البلد من أي نهوض جديد، عن طريق تجريده من ثرواته المادية والبشرية، فقد ركزت أميركا، ومنذ وقت مبكر، على العنصر البشري، وكان هذا التركيز نتيجة الاتفاق

والتنسيق بين الولايات المتحدة وإسرائيل. إذ بعد أن دمرت هذه الأخيرة المفاعل الذري العراقي عام 1981، لجأت إلى التخلص من العلماء العراقيين أو العرب الذين يعملون في العراق بالملاحقة والتصفية في أنحاء من العالم، ومن نتائج هذه السياسة أن تم اغتيال عدد من هؤلاء العلماء، وتتبع الآخرين.

حين عجزت إسرائيل عن الوصول إلى علماء العراق، لجأت إلى إغراء الولايات المتحدة لاعتبار العلماء العراقيين لا يقلون خطورة عن أسلحة الدمار الشامل، وبالتالي من لم يستجيبوا لعمليات إغرائهم وترحيلهم إلى الولايات المتحدة، فلا بد من التضييق عليهم بكل الوسائل، ولأن لهذه الصيغة سقفاً معيناً، ولأن هناك مقداراً غير قليل من الجهل حول عدد هؤلاء واختصاصاتهم والأدوار التي يمكن أن يقوموا بها، فقد لجأت أميركا عن طريق فرق التفتيش، وبتغطية من مجلس الأمن إلى تأكيد أن إحدى مهمات التفتيش أن تحقق مع هؤلاء العلماء، وأن يكون هذا التحقيق على انفراد، والافضل أن ينقل العلماء مع عائلاتهم إلى الخارج، وأن يجري التحقيق معهم هناك.

إن نقل العلماء إلى خارج العراق يجعلهم في وضع دقيق وصعب، إذ يخضعون للابتزاز عن طريق الإغراء، بأن يعرض عليهم العمل في الولايات المتحدة، وبشروط عمل بالغة السخاء. من يوافق على هذه الصيغة يواصل سفره إلى مكان مجهول في أميركا، ومن يرفض مثل هذا العرض يتعرض للتهديد، وربما للتصفية، وسجل إسرائيل في هذا المجال حافل. لكن رفض العلماء للتحقيق، ومن باب أولى للسفر إلى الخارج أسقط في يد أميركا وإسرائيل،

وجعل الامتثال لهذا الطلب صعباً وبعض الأحيان مستحيلاً.

أما بعد أن نشبت الحرب، فقد أصبح هؤلاء العلماء هدفاً، وجدّت القوات الأميركية في البحث عنهم واعتقالهم، واضطر بعضهم إلى تسليم أنفسهم بعد أن استشرت الفوضى واتسعت عمليات التصفية، وتجنباً لما هو أسوأ فقد اختار عدد من العلماء هذا الطريق.

الآن، وقد سيطرت أميركا ومرتزقتها على العراق، سيبقى هدف الوصول إلى العلماء هدفاً مركزياً، وستبذل أقصى جهدها من أجل تدجينهم، وتالياً ترحيلهم، ومن سيستعصي على هذه السياسة سوف تلجأ، عن طريق المرتزقة والرعاع، إلى تهديدهم وجعلهم في خوف دائم وأيضاً إلى خلق كمٍّ غير محدود من المضايقات، إضافة إلى سد أبواب الرزق أمام هؤلاء العلماء تمهيداً لترويضهم ثم حملهم على تغيير مواقفهم.

إن استيعاب هؤلاء العلماء، وخلق فرص عمل لهم، يتطلب مناخاً ملائماً، وهذا المناخ يقتضي جهداً كبيراً من أكثر من جهة. فالعلماء الذين أثبتوا جدارتهم وكفاءتهم، وأيضاً صمودهم في مواجهة الإغراءات والتحديات، واجتيازهم هذا الامتحان الشاق خلال الفترة التي سبقت الحرب، ثم بعد أن وقعت، هؤلاء العلماء يتعرّضون الآن لتجربة جديدة وربما تكون قاسية ومريرة، ولا بد أن يصمدوا في هذه التجربة.

ثم هناك البيئة المحلية المحيطة بالعلماء، والتي يجب أن تحميهم وتحرص عليهم، وتدفع الغوغاء عنهم، ويفترض أن تسند

إليهم أعمال تتناسب وكفاءاتهم، وتؤمّن الحد الضروري من الدخل الذي يجنبهم التنازل أو اللجوء إلى الخصم. ومن البديهي أن يستطيع هؤلاء العلماء أن يتكيفوا مع أعمال جديدة، تناسب المرحلة، إذا توفرت لهم مثل إعادة بناء الصناعة وتهيئة جيل جديد من العلماء، ووضع خبرتهم بتصرف الجامعات والمعاهد المتخصصة.

وأخيراً هناك المناخ العربي الرحب، والذي يجب أن يبذل أقصى الجهود، دون ضوضاء، من أجل استيعاب أكبر عدد من هؤلاء العلماء، والاستفادة من خبراتهم وطاقاتهم، ولو لفترات زمنية حتى يتهيأ جو جديد في العراق يستطيع أن يستوعبهم من جديد ويعودوا إلى مواقعهم المناسبة.

لقد حصلت خلال العقدين الأخيرين تجربتان، الأولى في بلادنا العربية، والتي تطالب بعودة الكفاءات، وقد قام عدد كبير من هؤلاء، وقدموا تنازلات ليست قليلة من أجل أن يبقوا وأن يتكيفوا، لكن لم تمض فترة إلا وبدأت الهجرة المعاكسة وعودة الكفاءات من حيث أتت. حصل ذلك لأن الحكومات اكتفت ببعض المزايا المادية التي وفرتها، ناسية أو متجاهلة المطالب الأخرى من حيث وضع الرجل المناسب في المكان المناسب، وتوفير وسائل البحث، وخلق أجواء تمكن من توطين هذه الكفاءات وتوفير متطلبات بقائها واستمرارها.

أما التجربة الثانية فحصلت في البلدان الاشتراكية، خاصة بعد الاتحاد السوفياتي، إذ ما كاد يسقط النظام حتى تخلخلت المؤسسات ثم تفككت، واضطر الكثير من العلماء والموسيقيين وذوي

الاختصاصات الهامة والنادرة إلى الهجرة، إلى أوروبا أولاً ثم أميركا وكندا، بحيث إن خسارة روسيا ودول المعسكر الاشتراكي السابق نتيجة هجرة هؤلاء كانت أكبر مما خسرت في حقول عديدة أخرى.

لو أن نظرة موضوعية نزيهة تمعنت في التداعيات التي أخذت تعلن عن نفسها منذ وقت مبكر، واتخذت الإجراءات والاحتياطات الضرورية لوقف هذه التداعيات أو الحد منها لجنّبت روسيا الكثير من الخسائر التي لحقت بها، والتي لا يمكن أن تعوض.

إن الرأسمال الحقيقي للعراق، ثم للأمة العربية، ليس هذه الأسلحة التي تتكدس، وليست القصور التي تبنى، وإنما هم المواطنون الأحرار الواعون، وفي القمة من هؤلاء النخب، وخاصة العلماء وذوو المهارات المميزة، والقادرون على مواجهة أية هزيمة والخروج منها.

لقد كانت ألمانيا واليابان نموذجين نادرين على إعادة خلق الأمم ومواجهة التحديات وتجاوز الأزمات. وجدير بنا، نحن أبناء الأمة العربية من أقصاها إلى أقصاها، أن نصمد في هذه المحنة، وأن نضع سلّماً جديداً للمهمات والأولويات، وأن نُحَوّل الهزيمة إلى حافز للنهوض وإعادة البناء.

مكتبة
t.me/t_pdf

المحتويات

مدخل: لماذا هذا الكتاب الآن؟	5
ديمقراطية أميركية للعراق	29
ثورة العشرين	35
الشيخ ضاري المحمود والكولونيل لجمان	49
مس بيلْ «الخاتون»: المرأة التي أنشأت دولة ونصّبت ملكاً	63
فيصل الأول وسياسة «خذ وطالب»	81
مشكلة الموصل: الواقع والمؤمرات	93
اغتيال الملك غازي	105
ياسين الهاشمي: الشهاب الذي هوى	119
سندرسن باشا	133
عبد الإله: الوصي على عرش العراق	147
حركة رشيد عالي الكيلاني	163
وثبة الخير: يوم الجسر	177
اللصوص «يحرسون» الكنوز	189
إنقاذ علماء العراق	199